كتاب في جريدة

أصدرته منظمة اليونسكو عام 1996

عدد 145 – الأربعاء 1 أيلول (سبتمبر) 2010

أنا أحيا

ليلى بعلبكي

رسوم: لور غرّيب



الشريك الثقافي



المؤسسة الراعية

معالي السيدة إيرينا بوكوفا Irina Bokova، المديرة العامة لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة –اليونسكو– ومعالي الشيخ محمد بن عيسى الجابَر MBI Al Jaber المبعوث الخاص لمنظمة اليونسكو للتسامح والديمقراطية والسلام.

إيماناً منها بأهمية نشر المعرفة وتشجيع القراءة ودعم الفن التشكيلي لمواجهة الأزمة الثقافية الخانقة في العالم العربي، **وإسهاماً** في إعداد جيل عصريّ عربي قادر على المساهمة في بناء الحضارة الحديثة والتوصل عبر التربية والعلم والثقافة إلى إدراك الديمقراطية والسلام تمشّياً مع مبادئ الميثاق التأسيسي لليونسكو، تُصدرُ **مؤسسة محمد بن عيسى الجابر** MBI Al Jaber Foundation بالتعاون مع منظمة اليونسكو / UNESCO وبالاشتراك مع كبريات الصحف اليوميّة العربيّة تؤازرها نخبة من كبار الأدباء والكتّاب ومن ورائهم الملايين من القارئين،

كتاب في جريدة

شهرياً وبشكل مجاني ومنتظم هديّةً منها إلى أكبر فئة من القرّاء في جميع العواصم العربية والعرب في العالم.



الصفحة الرئيسية للموقع الالكتروني ل"كتاب في جريدة" الأربعاء الأول من كل شهر على www.kitabfijarida.com

MBI AL JABER Foundation







صرختنا الأولى... صرختنا الأخيرة

اعتراف أوّل: تلك الفتاة التي كانت بالكاد في الثالثة عشرة من العمر، لم تكن تدرك بعد، عندما أخذت ذلك الكتاب المصفرّ من مكتبة والدها وقرأته، أن صرخة بطلة الرواية، التي هزّتها وصدمتها، سوف تكون صرختها هي.

لأمعن في الاعتراف: أنا، بطبعي، أحبّ الصدمات. خصوصاً غير المفتعلة منها، أي الايجابية والمحرِّكة والموقظة والصحية. على غرار الصدمة التي صنعتها في روحي قراءة "أنا أحيا" عام ١٩٨٤، وعلى غرار الصدمة "الأدبية" و"الاجتماعية" التي شكّلتها الرواية زمنَ صدورها (١٩٥٨). كيف لا، وقد كسرت ليلى بعلبكي بنصّها هذا، الذي يكاد لا ينبثق إلا من ذاته، ولا يشبه شيئا مما سبقه، كسرتْ تاريخاً من الصمت الأدبي النسائي، وافتتحت في هذا التاريخ فصلا جديدا فريدا من نوعه!

إنها علامة ضوء، نسترشد بها كبوصلة بين الما قبل والما بعد، ما قبل هذه الرواية، وما بعدها.

لكني، على رغم ذلك، أرفض تسميتها بالرواية النسوية، على غرار ما قد يفعله كثيرون وكثيرات. أرفض ذلك أولاً، لأني لا أؤمن بهذا التبويب الأعمى والاعتباطي. وأرفض ذلك ثانياً، لأني مقتنعة بأن الكلمة عندما تكون اصيلة وحقيقية، فهي تكون شاملة وكونية مهما عبّرت عن خصوصيات. إنها كلمة إنسان، نقطة على السطر. وأرفض ذلك ثالثاً، لأن الطاقة الخلاّقة الحقيقية الكامنة وراء تكوّن نص ما، ناجمة في رأيي عن "ضبابية" جنسية هي التوازن بين الذكورة والانوثة، او انصهارهما. الأدب كائن جنسي، نعم، لكنه لا يحتكر جنساً دون آخر، لأنه يجسّد اجتماع الذكورة والانوثة معاً.

لأجل ذلك كله، فإن رواية "أنا أحيا" رواية إنسانية. إنسانية بامتياز.

هي إنسانية أيضا لأن لينا فياض، بطلتها، هي كل انسان قيل له إنه لا يستطيع. واستطاع.

كل انسان حذّروه من التجرؤ والتخطي. لكنه تجرأ وتخطّى.

كل انسان آمن بنفسه وقدراته وأحلامه على الرغم من محاولات إحباطه وثنيه عن الذهاب قدماً في تلك الأحلام.

تلك الهوّة الذي حاولت لينا فياض اجتيازها، هي هوّة قيودنا ومخاوفنا وشكوكنا. هوّة الحدود الاجتماعية والدينية والقبلية المفروضة علينا، والمحرّمات المسلطة على أعناقنا، وأشكال القمع التي تمارَس يوميا على عقولنا وأجسادنا وأفكارنا ورغباتنا، إن مباشرةً، أو بخبث.

بطلة ليلى بعلبكي، تعرفونها جيدا. هي امرأة ناقمة ومتعبة وقرفانة وغاضبة. امرأة تنهشها الوحدة والفراغ والضياع والاحتقار والرتابة والملل الوجودي. هي امرأة لا "يهمّها المستقبل" بقدر ما "يعذّبها الحاضر". امرأة لا تؤمن "إلا بالحقائق الملموسة". امرأة ليست كالباقيات، تعتز بفرديتها ولا تريد "أن تكون كأي شخص آخر". لا تريد، خصوصا، أن تكون "ملك أحد سوى نفسها"، اي لا تريد أن تكون مسجونة في حظيرة رجل.

بطلة ليلى بعلبكي حرّة ومتمرّدة ووقحة ومتحدّية ومستقلة و"قدريّة" وشجاعة. وهي صفات كانت استثنائية في سياق الرواية الزمني. أما أن تظل استثنائية الى اليوم، على رغم مرور الأعوام والأجيال وتراكم التحوّلات، فهذا شأن غير طبيعي على أقل تقدير.

فكّروا معي: هل من المعقول أن تكون الحال لا تزال هي هي – تقريباً– الآن وهنا (هذا إذا تفاءلنا ولم نقل إنها أسوأ)، أي بعد ٥٢ عاما على صدور الرواية؟ هل من المعقول ألا يكون قد تغيّر شيء – تقريبا– خلال تلك الأعوام؟ "مسكينة والدتي، لا تعرف من الحياة إلا أن تشارك الرجل فراشه، وتطهو له الطعام، وتربّي له الأولاد"، تقول لينا فياض. فكم من أمهات يشبهن والدة لينا فيّاض، ولا يزلن يعشن بيننا الى اليوم؟ هل من المقبول مثلا، في القرن الحادي والعشرين، أن يكون مآل عدد كبير من الفتيات في العالم العربي لا يزال البحث عن عريس، أياً يكن هذا العريس، وكيفما يكن، والاندفان – لا العيش – داخل جدران أربعة، هي جدران المنزل الزوجي؟ أليس مثيرا للشفقة والرثاء، على سبيل المثال لا الحصر، أن يكون مصير شرفنا العربي العظيم مرتبطا حتى يومنا هذا بما بين فخذَي امرأة، وهو أصلاً ملكها حصراً، ولها وحدها القرار في أن "تتنازل" عنه أو لا؟!

في اختصار: بطلة ليلى بعلبكي لم تتقدم في العمر. بالكاد اكتسبت تجعيدة أو اثنتين.

للأسف.

لا يجدي النكران نفعا. هل تذكرون قصة الملك العاري وثيابه الخفية؟ لنقلها عاليا وواضحا: أن تكونَ المرأةُ امرأةً اليوم في بلد عربي، فذلك لا يزال يعني مسلسلا متقطّعا من الاجحافات والتعتيمات والاستخفافات، ومن عمليات التهميش والاقصاء الممنهجة أو "البريئة"، التي قد يكونُ سببَها الرجلُ، أو المرأةُ نفسُها، أو الاثنان معاً.

أن تكونَ المرأةُ امرأةً اليوم في بلد عربي، فذلك لا يزال يعني أن تحتال قليلاً وتوارب كثيراً وتستعير من هنا وتتقنّع من هناك. والله أعلم. ولستُ أعمّم.

أن تكونَ المرأةُ امرأةً اليوم في بلد عربي، فذلك لا يزال يعني غالباً، أن تسمّي الأشياء بغير اسمائها.

أن تكونَ المرأةُ امرأةً اليوم في بلد عربي، فذلك لا يزال يعني ان تمارس على نفسها رقابةً ذاتية، لهي أقسى واشرسُ وأشدُ اعتباطيةً وظُلماً من الف رقابة "رسمية" تُفرض عليها فرضاً من خارج.

أن تكونَ المرأةُ امرأةً اليوم في بلد عربي، فذلك لا يزال يعني أن تحسب بدقّة وتجازف بذكاء وتساير فلاناً وتداري فلانة.

أن تكونَ المرأةُ امرأةً اليوم في بلد عربي، فذلك لا يزال يعني أن تكون مستعدّةً لـ"الجرصة" إذا ما خرجت على "الصراط" المرسوم لها سلفا من جانب الرجل.

لا يجدي النكران نفعا، أكرّر. لنقلها عاليا وواضحا وبإصرار: الرجولة عند الرجل العربي مقترنة بشخصه الذكري، وبتغييب شخص المرأة، وبتغييب مشاعرها وحاجاتها، وحتى وجودها نفسه. هي تابع وأكسسوار. القصة نفسها: الضلع من الكلّ. لا نزال الى اليوم مجتمعات ذكورية مترهّلة ومتخلّفة. عناوين تخلّفنا هذا، الذي نرفض الاعتراف به، لا تحصى: جرائم الشرف، الرجم بسبب ارتكاب الخيانة، حرق الوجه بالأسيد نتيجة الزواج بآخر، السجن جرّاء ارتداء بنطلون جينز، الاقتران بفتيات قاصرات وممارسة العنف الجنسي عليهنّ، ختان الاناث، وأد البنات، حرمان النساء من التعليم، حرمانهن حرية التعبير والحركة والملبس والعيش، فضلا عن إذلالهنّ وتغييبهنّ ومعاملتهنّ بإصرار كقاصرات.

الأفدح في كل ما سبق، أن الرجل ليس وحده المتواطئ ضد المرأة (أي ضد نفسه حكماً)، بل هي غالبا المرأة عدوّة نفسها الأشرس.

فمتى تكفّ هذه المرأة في شرقنا عن استضعاف نفسها، ومتى تظهر أظفارها و"أنيابها"، وتستولي على ما هو لها، وما لن يقدّمه إليها أحد؟

متى تفيق نساؤنا من تواطوئهنّ المعيب على ذواتهنّ، ومتى يصير رجالنا رجالا بحق، ومتى تفيق مجتمعاتنا من مراهقتها وتخلفها وتشييئها للمرأة؟

تلك الفتاة التي كانت بالكاد في الثالثة عشرة من العمر، لم تكن تدرك بعد، عندما أخذت ذلك الكتاب المصفرّ من مكتبة والدها وقرأته، أن صرخة بطلة الرواية، التي هزّتها وصدمتها، سوف تكون صرختها هي.

في داخل صرخة ليلى بعلبكي تلك، وفي داخلي ايضاً، كما في داخل نساء كثيرات، ثمة شيء جبّار وخطير اسمه الغضب. غضب ينمو مثلما تنمو الجبال. غضب مبرّر وضروري وملحّ.

فصرخة ليلى بعلبكي الغاضبة في "أنا أحيا" هي صرختنا الأولى. منذ لحظة خروجنا من الأرحام الى هذا العالم.

صرختها هي صرختنا الدائمة، تلك التي لا ينبغي لنا أن نكفّ عن إطلاقها يوماً بعد يوم، لحظةً بعد لحظة، كي لا يبتلعنا وحش الامحاء والتغييب والذوبان.

وصرختها هي صرختنا الأخيرة. وتتوقها حناجرنا.

فمتى نصير كلّنا لينا فيّاض؟
متى كلّنا نصرخ: "أنا أحيا"؟

جمانة حداد

ليلى بعلبكي

تشكّل هذه المادة القسم الأول من رواية "أنا أحيا" الصادرة عن دار الآداب وذلك بسبب محدودية الصفحات.



الراعي
محمد بن عيسى الجابر
MBI AL JABER FOUNDATION

المؤسس
شوقي عبد الأمير

المدير التنفيذي
ندى دلّال دوغان

سكرتاريا وطباعة
هناء عيد

المحرر الأدبي
محمد مظلوم

المَقَّر
بيروت، لبنان
يصدر بالتعاون مع وزارة الثقافة

عدد رقم 145
(1 أيلول 2010)

تصميم و إخراج
Mind the gap, Beirut

الإستشارات الفنية
صالح بركات
غاليري أجيال، بيروت.

المطبعة
پول ناسيميان

الإستشارات القانونية
"القوتلي ومشاركوه – محامون"

المتابعة والتنسيق
محمد قشمر

كتاب في جريدة
سنتر دلفن، الطابق السادس
شارع شوران، الروشة
بيروت، لبنان
تلفون/ فاكس 835 868 1(0) 961+
kitabfj@cyberia.net.lb
kitabfijarida@hotmail.com

أعيد إصدار رواية "أنا أحيا" لليلى بعلبكي حديثاً عن دار الآداب
بالإضافة إلى عمليها "سفينة حنان إلى القمر" و"الآلهة الممسوخة".





لور غريّب

ولدت في "دير القمر" – منطقة الشوف / لبنان.

فنانة وناقدة تشكيليّة معروفة لها مساهمات في العديد من المجلات الأدبية والفنيّة والصحافة وهي تكتب باللغتين العربية والفرنسيّة وذلك منذ عام ١٩٦٢.

أقامت العديد من المعارض الفنيّة في لبنان وخارجه منذ العام ١٩٦٠ حيث شاركت في معارض البينالة العالمية والعربيّة في باريس ١٩٦٧ وبغداد ١٩٧٤ والاسكندرية ١٩٩٧ ومعارض في سوريا، الكويت، الشارقة، مصر، وكذلك في أفريقيا والهند واستراليا.

شاركت في العديد من المعارض الجماعية حول "ذاكرة بيروت" في الجامعة الأميركية ١٩٩٦ ومنظمة اليونسكو ١٩٩٩ وفي جنيف ٢٠٠٣ وفرانكفورت ٢٠٠٤.

صدرت لها مجموعة شعرية باللغة الفرنسية عام ١٩٦٠ ومجموعة قصصية باللغة العربية "تاج من الشوك لأقدامه" ١٩٦٥.

حازت على العديد من الجوائز: "بينالة باريس ١٩٦٧" والجائزة الأولى لـ "بينالة الاسكندرية ١٩٩٧" وغيرها.

تقيم وتعمل في بيروت – لبنان.

أنا أحيا

ليلى بعلبكي

القسم الأول

– ١ –

فكرت، وأنا أجتاز الرصيف، بين بيتنا ومحطة الترام:

لمن الشعر الدافئ، المنثور على كتفيّ؟ أليس هو لي، كما لكل حي شعره يتصرف به على هواه؟ ألست حرة في أن أسخط على هذا الشعر، الذي يلفت إليه الأنظار حتى أمسى وجودي سبباً من وجوده؟

ألست حرة في أن أمنح حامل الموسى لذة تقطيع خصلاته وبعثرتها بين قدميه، ليرميها حامل المكنسة، في تنكة صدئة؟

ثم ألست حرة في أن أتردد أكثر من مرة لزيارة حامل الموسى، فأشبع عينيّ من رؤية الأداة الحادة، وهي تتكتك وهي تأكل. وهي تقتل؟

في المساء، وبعد أن أرجع من عملي، سأسحب رجلين ثقيلتين إلى حيث الأداة الحادة. فأنا أحس برغبة جامحة: لسماع دمار، لمشاهدة أشلاء، للتحديق بأصابع قاسية، جبارة، لا ترحم.

لكن،

سيكون ذلك في المساء... في المساء، والصبح يتربع على عرش هذا اليوم، والمطر يسكب في جسدي برودة لذيذة تنام على أطراف الأصابع، وفي الركبتين.

سيكون ذلك في المساء... كأن المساء قريب!

ماذا؟ ساعات معدودة، ويكون المساء؟

نحن نقول دائماً ببساطة: في المساء مواعيدها. كأن هذه الملايين الغزيرة من الدقائق، والثواني... كأنها لا شيء!

أما أنا، فمن الآن حتى المساء، سأبني مستقبلاً لحياتي:

سأستقل هذا الترام، مع أن سيارتنا الحمراء الجديدة تربض على مدخل بنايتنا. سأنزل في ساحة المدينة الهائجة. سأسير تائهة في الشارع المزدحم. سأنعطف إلى اليسار في الزقاق الضيق، الوسخ. سترتجف حتماً ركبتاي قليلاً حين أصل. سينكمش قلبي مختبئاً في الزاوية. وسيضرب الدم صدغيّ بقساوة تعمي عينيّ.

قلت،

سأستقل هذا الترام، لكن كيف سيتاح لي الصعود إليه، ورصيف المحطة يكاد أن يتزلزل بهذه العشرات المنتظرة؟

أنا أنتظر. أنتظر. والوقت يزحف. ويزحف.

أتمنى لو كان الوقت شيئاً ملموساً، لتجاهلت وجود الناس حولي، وانقضضت عليه أنهشه بأظافري، وأمضغ أشلاءه بأسناني.

ثم ألفظه على الأرض لينزوي بين قدميّ خائفاً، صاغراً. إن قلت له قف: جمد! وإن أمرته بالتحليق، غاب عن الحياة وأنا ممسكة زمامه، مستلقية بين جناحيه!

أنا أنتظر.

ولن أتحمل الانتظار أكثر من ذلك. سأذهب في سيارة.

ما أغباني!

كيف لم ألمح هذه السيارات الرائعة الألوان، الناعمة الصوت، المغرية؟

وما دمت سأعمل، والعمل سيكون فاخراً؛ وما دمت سأدفع من تعبي الأجرة، فسأجلس هكذا في مقعد السيارة. وهكذا، أعني، بعظمة! وأدير رأسي ملصقة خدي الملتهب بالزجاج البارد. وسأمسك ربع الليرة بأطراف أصابعي وأرميها إلى السائق، دون أن ألتفت محدقة بوجهه، ووجوه سائر الركاب.

ولن أفعل هذا، اليوم، فقط. إنما سأهزأ بوالدي، وسيارته، ودراهمه. سأريه هذا الاستخفاف به كل يوم، كل يوم.

والآن، عليّ أن أختار لوناً ينسجم مع لون معطفي الرمادي القاتم، ماذا أختار: أحمر؟ أخضر؟ أزرق وأبيض؟

أكاد أن أزعق إعجاباً، يا لهذه السيارة الأنيقة!

سأمد يدي مشيرةً إلى السائق: قف!

تنبهت:

لأمدها، لأمد يدي إلى حقيبتي مفتشة عن ثروتي فيها.

خمسة وعشرون قرشاً ثروتي!

خمسة وعشرون قرشاً للذهاب إلى العمل، في سيارة؟ ولكن كيف أعود؟ لو كانت الحكومة قد حددت أجرة الراكب في السرفيس بخمسة عشر قرشاً، لبقي معي عشرة قروش للإياب في الترام. ثم تمر لحظة في حياتي، لا أملك فيها قرشاً واحداً. لأعدّ بعدها ثروتي التي أجمعها بعرقي: بالليرات.

ليت والدي يسمعني وأنا أجاهد في حل هذه المشكلة المالية المستعصية! أتمنى لو كان يسمعني، فأرى انفعالات نفسه على وجهه المصفرّ!

خمسة وعشرون قرشاً.

وسحبتها من حقيبة يدي، فإذا رائحة التنباك تنبعث من ورقة العشرة قروش، بينما تنزوي قطع الالومينيوم البيضاء الثلاث، في القعر، تضايقني رائحة الدراهم، ويسعدني منظرها. لكنني لن أتحمل ارتماء هذه النفايا الوسخة على راحة يدي. إنها تنهش يدي، تأكل من يدي. سألقيها في مياه المطر الوسخة الراكدة، تحت الرصيف. وسأتسلى برؤية الورقة، وهي تتفتت، بينما ينام المعدن في القعر متلألئاً!

أنا بلهاء. كيف سأصل إلى مقر عملي، إذا رميتها؟

وبحركة عجلى رميت القروش في الحقيبة، وأقفلتها، وسرت تحت المطر.

أعشق السير تحت المطر. الحياة اليوم كلها لي، أحس بنشوة، وبانتصار، وبحيرة!

يا للأفكار المضطربة! وقفت:

هذا الزاروب وسخ. وهؤلاء الناس المبعثرون فيه، لهم وجوه صفراء، وأنوف حمراء متجلدة.

ثم هذه هي اللافتة الكبيرة: هنا سأعمل.

للبناية بوابتان، إحداهما صغيرة، في الزاوية. والثانية كبيرة، رائعة، تتصدر المدخل.

ولجت البوابة الكبيرة على عجل، دون أن ألتفت حولي لأجيب عن أسئلة البواب المسكين. وابتلعت الدرجات العديدة بخطوات سريعة، فتلقاني الحاجب في الطابق الثاني متسائلاً ببرود:

– نعم؟

ونقل نظراته بين وجهي المنفعل، وثيابي المبتلة، وتبسم. فتبسمت بدوري مجيبة:

– الرئيس!

وقبل أن يتحرك، قرعت باباً صغيراً فخماً وحاولت فتحه، فإذا هو مقفل. بذلت جهداً جباراً لأدير رأسي، وأرى تأثير حركتي، ونتائجها في عينيّ الحاجب. فإذا الابتسامة الباهتة لا زالت تتأرجح على شفتيه، وهو يشير إليّ بمفتاح أصفر صغير!

تمتمت دهشة، وأنا أمد يدي بأصابعها الخمس، إلى الباب:

"أليس.. هو.. هنا؟"

فلم يجب، وتقدم يسألني:

"اسم الآنسة الكريم؟"

أعجبتني صفة كريم لإسمي، كما أعجبني ارتخاء أسارير وجهه، حين سمع إسمي. وأعجبتني هذه النظرات: نظرات ذعر. تهيب. خوف. استغراب. ثم الخضوع، وحركة التلبية المرغمة، وهو يدير المفتاح في قفل الباب الأنيق، وينحني لي قبل دخولي.

دخلت المكتب الشاسع وأسندت ظهري إلى الباب، وسرّحت نظري في أرجاء هذا العالم الغريب. واستقرت عيناي على يدي، فإذا هي حمراء، كأنها تقطر دماً. خفت، واعترتني رغبة بكاء عاصفة، وانتزعت عينيّ فوراً عن يدي، ورميتهما على ساقيّ، فإذا هما أيضاً تكادان أن تقطرا دماً! رفعت عينيّ عنهما، ورحت أفتش في القاعة عن اللون الأحمر، فتعلقت عيناي بالسقف، وبجوانب الغرفة: تعلقتا بالأضواء الحمراء التي تنز دماً!

هذه الأضواء مثيرة. الدفء في جوانب المكتب مثير. المقاعد الجلدية بأخشابها اللماعة مثيرة. الزهور البيضاء، ووجودها في مؤسسة أعمال، وفي الشتاء مثيرة. وهذا الصوت الذي يرحب بقدومي، هو أيضاً مثير.

وخطرت في رأسي فكرة جنونية، هي أن أعود. أعود. وتتابعت دقات حروفها الأربع في رأسي بانتظام: أعود.. أ.. عـ.. و.. د..

هل أعود؟

وسلخت نظري عن الأضواء، وحدقت في صدر القاعة، فإذا عينان، كعيني الهر، تبرقان في هذا الجو الأحمر، الساخن، وتراقبان حركاتي.

أحسست باطمئنان حين وجدت العينين، لأنهما كانتا ساخرتين فشجعتني سخريتهما على استجماع وعيي، فزحفت زحفاً على السجادة صوب رئيس المؤسسة.

واقتربت، اقتربت إلى أن لامس جسدي كله المنضدة الكبيرة، ومددت يدي أصافح "المقعد الجلدي"، ثم جلست.

أأنا مخطئة إذا دعوت هذا الرجل: المقعد الجلدي؟

تعودت ألا أعرف الأشخاص بأسمائهم، لأنني أعتقد أن أكثر الأسماء لا تنسجم مع نفسيات أصحابها، ولأن الشخص الواحد أحياناً



يدل على فئة معينة من الناس: فالبعض أطفال، والبعض هررة، أو ثعالب، أو خنازير، أو روائح، أو جمادات، أو آلهة.

أما هذا الرجل الذي يقف أمامي، فهو يكمل أثاث هذه القاعة الغريبة: إنه المقعد الحي فيها. وتتربع على هذا المقعد، كما استنتجت، دولتان هامتان، تسيطران على سياسة العالم – أو بالأحرى تحاولان السيطرة على هذه السياسة العالمية – من عندنا: من الشرق الأوسط، من قلب الدول العربية.

وبدأ المقعد كلامه. فلم أتأثر بصوته الدافئ، بعد أن رأيت عينيه الساخرتين. قال:

"لا أستطيع أن أصدق، إنك أنت هي التي أعلن الحاجب عن قدومها. هل أنت لينا فياض؟"

وصمت. ينقب في وجهي عن الحقيقة... ثم همس:

"والدك صديقي".

فكرت: "والدي صديق كل مستغل للحوادث السياسية" وانفجرت بضحكة غيظ.

فعادت نظرات الحاجب تأخذ مكانها في عيني المقعد الجلدي البراقتين. نظرات تهيب. واستغراب. وإذا حركة تفيق في رأسه: حركة التلبية، والتصديق، والاحترام.

كففت عن الضحك، وتكلمت:

"اطلعت على إعلانكم في النشرة الاخبارية اليومية التي تصدرها مؤسستكم. ولمست في نفسي الكفاءة المطلوبة في الموظفة التي تحتاجون إليها".

نهض منتصباً، يرتكز على جيبه الأيسر، وصاح:

"أنت! أنت ستعملين؟ أنت طفلة... لا عفواً، أعني أنت ابنة هذا الثري؟"

بأي مقياس يقيسني هذا الأحمق؟ أيعتبرني طفلة وأنا في التاسعة عشرة من عمري؟ ألا يحق لي أن أعمل، إذا كان والدي، لا أنا، يملك الملايين؟

أنا أحتقر والدي. وأحتقر ملايينه. وأحتقر هذا المقعد الذي لا تعجبه انطلاقتي!

ألا يعلم هذا، أنني لو خيِّرت باختيار والدي، لما كان والدي هو والدي، ولا كان هذا المقعد القذر؟

هببت واقفة، ورددت على مهل:

"جئت لأعمل هنا، لا ليؤخذ استجوابي. إذا كان هنالك مجال للعمل، فأرجوك أن تطلعني على تفاصيله وشروطه، وإلا..."

استوقفني بلين:

"تمهلي... تمهلي... عودي في التاسعة من صباح الغد، للشروع في عملك، وليس هنالك شروط".

بحركة لا شعورية، صافحته، وتركت البناية ركضاً.

وحين تهادت حبات المطر على وجهي، وعاد الصقيع لينام في أطرافي، وعلى رأس الأنف، فركت عينيّ، وسرت تحت المطر...

كنت أتمخطر في سيري نشوى، كأنني في حقل مزهر تنام الشمس بين أعشابه ويغرد الطير على شجيراته. وكان كل من يراني يشك في أنني مصابة بمرض عقلي. وكأن المياه تغلغلت إلى فكري، فعطلته عن العمل. ورحت أتلفت حولي متفرجة على واجهات المخازن.

لم تقلقني غرابة مقابلتي للمقعد الجلدي، ورهبتها. لم يقلقني رجوعي إلى البيت. أجل إلى البيت.

تربطني بالبيت حاجة واهية، تعيدني إليه دوماً، لآكل فيه وأنام وأشترك في بعض المناقشات، والمخاصمات، والمشاكل. الآن، وأنا بعيدة عنه في هذا الشارع الممطر، الضاجّ، أعجز عن تجسيم صورة له.

أنا هنا في الشارع، يتوزع انتباهي بين قارورة العطر في واجهة "عماطوري" وفساتين الجوخ في واجهة "أ.ب.ث"، وزمامير السيارات المزدحمة عند الكوع، وحركات شرطي السير العصبية، الماهرة، وقدمَي الرجل المرفوعتين على كرسي، في معمل "نيويورك" للأحذية، يلمّع له رجل أشيب حذائيه الموحلين...

أذكر هنا في الشارع، أنني أسكن في عمارة عملاقة، فخمة، صفراء، تربض على شاطئ هادئ من شواطئ بيروت... ثم،

ثم أنجرف وعيي يراقب زخّات المطر التي داهمت الذين أقفلوا مظلاتهم، فغمرتني لذة ساخنة. وتلهيت حيناً بخطواتي، فضيقتها، ثم تسربت اللذة الساخنة إلى رأسي تداعبه، وتزرع في أنحائه نمنمة ملتهبة، لتبعده أخيراً عن الضجيج، وتدفنه، تحت الغطاء الصوفي الأزرق الناعم في البيت.

في خاطري من البيت نتف صور مبعثرة، ترهقني، تشدني إليه وتبعدني عنه في آن واحد.

تزداد حاجتي إلى البيت في الليالي العاصفة، فأغلق شبابيكه، وأسدل الستائر، وأحتمي في الفراش مغمضة الأجفان، أسد أذني بأصابعي... أقتل خوفي من الرعد الزاعق، والعتمة الرهيبة، والهمسات الغامضة، الخطيرة، تحت الأثاث!

المطر ينهمر، والبرد يقسو، وأنا عمود رمادي يتنقل بإعياء على الرصيف، يعيق اندفاع المارة إلى مدخل البنايات... فراحوا يزيحونني بضجر عن طريقهم. تمتمت:

إنهم يخافون المطر في النهار. وأنا أخافه في الليل. وهذا الخوف يشلّني!

هم يخافون أن تتوسخ ثيابهم بالأوحال وتتلف بالمياه، وأنا أخاف الرعد. والرياح. والظلمة. والبرق!

أسرعت إلى بوابة صغيرة، في الجانب الخلفي لمطعم "طانيوس"، ووقفت مع رجلين وامرأة، ننتظر انحجاب المطر.

رميت نظرة متفحصة على كلّ من الرجلين والمرأة، فإذا أنا لا أعرفهم. انحنيت على الحائط بارتياح، وفتحت حقيبة يدي وانتشلت منديلي



أمسح عن قدمي الوحل. فأسرع أحد الرجلين وتلقاني بذراعه، فاستقمت شامخة الرأس، أستجوبه بنظرة غضبي... فاحمرت أذناه، واعتذر بالفرنسية، ومد رأسه إلى خارج البوابة، يتفقد حالة الطقس. وغرقت المرأة والرجل الآخر بهمهمة حلوة، تمنيت حين لفحت سمعي وأرهفته، لو كان بجانبي رجل أستلطفه، فأقضي بقربه على خوفي من ليالي الشتاء بأكثر من همهمة حلوة!

تمنيت، وأنا أستعرض مشهداً دنيئاً لوالدي، كان يتلصص فيه على جارتنا المترهلة، الساكنة في بناية تطل شبابيكها على شبابيكنا:

كنا في بداية صيف هذه السنة، حين أرَّقني ألم عنيف، في ضرسي المنخور. فتقلبت في فراشي تتجاذبني سكينة اغفاءة، وقرقعة أطلقها الضرس اللعين في رأسي. رفعت المخدة، وخبأت الرأس تحتها، فكدت أختنق. تربعتُ على السرير فكاد رأسي ينفجر، كل قطعة منه على جدار... فهبطت على أرض الغرفة وانتشلت قطعة قماش كانت مطروحة على المقعد ولففت بها رأسي... ثم فتحت شدقيّ لأطلق ضحكة هازئة وأنا أرسم وجهاً مستنكراً لأختي الكبرى، وهي تلمح تنورتها الجديدة، تلتف حول ذقني ورأسي. آخ! لمع الضرس، فأطبقت شدقيّ وهرولت إلى غرفة الطعام لأبتلع قرص "الأسبرو"، فلمحت خيالاً على الشرفة.

إنه والدي، بكلسونه وقميصه "البروتيل"، القطنيين، مصلوب على الجدار، يرسل من فمه الدخان بعصبية، وقد برز كرشه ونحفت ساقاه، فإذا هو كبقايا إنسان، سودّت إحدى الحرائق هيكله وتركت ثيابه بيضاء تلمع.

تمهلت في ركضي، أزحف على أصابع قدميّ حتى لا أعكر على والدي جلسة حالمة في الظلام، غارقة في نسيم البحر الغافي تحت أقدام الصخور... لكنني مطتُّ رقبتي، والألم يتمدد، يتمدد، متشعباً فيها، فضرب عيني نور يهرب من نافذة البناية المجاورة.

تراجعت، وكدت أرتطم بالطاولة الرابضة في وسط الغرفة لو لم أتدارك وأتشبث بكرسي أبعد عن صف الكراسي، وحبست أنفاسي براحتي، وأغمضت عيني لحظة.

وفي اللحظات التالية شاهدت امرأة



غارقة في نور غرفتها، تنزع ببطء الثياب عن جسدها قطعة، قطعة. تنزعها باطمئنان، وهدوء، وحرية كاملة، كأنها واثقة من أن الجيران نيام في هذه الساعة المتأخرة من الليل. أو كأنها مؤمنة بأن والدي ينتظرها، ليبتلعها بعينيه!

كدت أذوب خجلاً. أهذه صدفة؟ أو هو ميعاد مدروس بين هذه المترهلة، والوالد؟

جمدت، فجمد الألم في حنكي الأيسر، وتسللت إلى فراشي تتداعى أمامي تماثيل احترام وتقدير وخوف لوالدي، كانت تجثم على عينيّ!

علّمنا أن نحفظ فضله علينا، لأنه هو سبب وجودنا. هو سبب رفاهيتنا. هو مشيد صروح مستقبلنا.

لو يعلم أنه يثير سخريتي، وأن أمي تنتزع مني الشفقة عليها، والاشمئزاز منها!

المطر ينهمر، وينهمر، فملّ الرجل الوحيد مثلي الانتظار، وضرب العتبة برأس حذائه، وقلب ياقة معطفه وقذف بنفسه في الشارع وضاع بين الأرجل الهاربة على الأرصفة... والتصقت المرأة بالرجل الآخر، وكفت عن الهمس لتناجيه بعينيها الفتانتين. وامتصصت أنا شفتيّ بعصبية أهدهد رجفةً حيرةٍ فيهما:

أنا كائن تافه، تافه، ملفوظ على هذه الطرقات. أنا كائن تافه... تافه...

وارتميت تحت الرذاذ من جديد، وخطر لي أن أعد النساء في الشارع:

واحدة. ثلاث. أربع. ست. تسع. وأنا، عشر نساء.

لكن، لا!

لا يحق لي جمع نفسي مع بقية النساء،

فأنا واحدة من عشر، من مئة، من مليون.

أما أن أكون واحدة مع عشر، مع مئة، مع... فهذا خطأ أرتكبه. ومع أن شعور ا لتفا هة يقبع في



خاطري، فقد بددته أمي على باب بيتنا مؤنبة:

"أين كنت تسرحين كالبزاقة على الطرقات؟ أين أفنيت كل ساعات قبل الظهر؟"

فكرت، وصمت شفقتي عليها يغلفني:

بل أين سأفني كل ساعات حياتي؟

وكانت هي تعصف في تهديدها:

"احذري! إذا كنت مصممة على الافلات، والمشاكسة، فسأتركك لوالدك، يرغمك هو على تنفيذ واجباتك!"

ضحكتُ.

هي جبانة. لماذا لا تجرؤ على الوقوف في طريق غاياتها؟ ألأنها تتحسس طغيان قدرة الشخص الواحد، حين يبدأ يتذوق قيمة فرديته وحريتها؟

أغضبتها ضحكتي، فازداد صراخها قساوة، لارهابي:

"ألا يهمك والدك، قولي أنك لا تخافينه... هيا، قولي!"

واقتربت مني، فابتعدت حانقة. ثم لمستُ الحائط البارد، وضحكتُ بحشرجة:

لماذا تتدخل هذه بأموري؟ لماذا يجب أن أرتعد خوفاً منها ومن والدي؟ لماذا لا تهتم بمشاكلها، فتمضي الليل حذرة، ساهرة، تحافظ على زوجها بقربها بدل أن تستسلم للنوم، فيغافلها هو ليسلب في الظلام موعداً... للقاء في سرير وفي عمق بياض النهار!

أمرتني:

"كفي عن الضحك!"

فكرت:

ذنبها أنها نحيلة، وزوجها يشتهي النساء المترهلات! لماذا لا تعتني بصحتها؟ لماذا لا تحشو جدسها بمآكل الأرض، لتحارب الأرملة المنافسة؟ وضحكتُ...

فلمست كتفي تهزني بعنف، وإذا يدها تغوص في بركة المياه الغائرة في ثيابي. عندها غمغمتْ، يهزمها حنو الأمومة فيها:

"أسرعي، وانزعي هذه الثياب المبللة عن جسدك! أسرعي..."

فاغتنمت فرصة ضعفها أستفهمها:

"هل تسلفينني خمسين ليرة، أعيدها لك آخر الشهر؟"

يبست مكانها. وثقلت يدها على كتفي، تنوي تحطيمه، ولم تجب، إنما دفعتني بسخرية إلى غرفتي، وهربت... لتتلقاني نظرات واسعة تطلقها أختي الكبرى من خلال زجاج نظارتيها. وتتبعها نظرات براقة، تسلطها على وجهي فقط، أختي الشقراء الصغرى. أما بسّام الصغير، المدلل، فكان يتلهى ببندقية حمراء جديدة.

قفزت الشقراء عن الكرسي، وزقزقت تحاول انتشالي عن الباب:

"ستتحقق كل أحلامنا. هيا اذكري فقط أسماء ما تنوين شراءه من ثياب لهذا الشتاء. الأسماء فقط".

ومدت يدها في الفضاء بحركة تمثيلية، وأحنت رأسها مرات عديدة، تتصنع ضجراً في انتظار تساقط الكلمات من شفتي. وأسرعت السمراء تفسر:

"سنرفع اللائحة بمشترياتنا إلى الوالد الغني، السخي، العطوف".

وتبادلتا نظرة ماكرة. فكرت، وعبارات هذه الأخت الكبرى ترتد عن أذني، كأنها آتية من جوف علبة زجاجية مغلقة:

هذه شقراء، وتلك سمراء. هذه البنت الصغرى، وتلك البنت الكبرى. هدف الشقراء أن تتزوج، وهمّ السمراء أن تجمع أكبر عدد ممكن من الشهادات.

وأنا لست سمراء، ولست شقراء. لا يهمني كل الرجال. ولا تغريني أية درجة ثقافية. وعبثاً أُنقب في نفسي عن صلة بهؤلاء الأشخاص. فأنا اعتدت وجودهم حولي، أحتكّ بهم ولا أحسهم. أنظر إليهم ولا أراهم. إنهم عندي تماماً كالأشجار، والأنهار، والنجوم، والحجارة. أشياء لا تناقش، لأنها من صنع غيرنا، ولأنها معدومة الحركة لن تؤثر على الخفقان المتجدد فينا.

نبهني صوت الصغرى يلح بميوعة:

"انطقي الأسماء... الأسماء... الأسماء... فقط".

أخرستها بشدة:

"لن أحتاج إلى كيس الوالد هذه السنة، ورعايته، وكرمه. حصلت على وظيفة".

فصرختا معاً:

"كيف؟ أين؟ ماذا؟"

وخيل إليّ أن الزجاج يذوب، ويذوب على عينيّ الأخت الكبرى، وأن في عينيّ الصغرى رجالاً أقزاماً، حاصرتهم العين وهم في مكاتبهم يدخنون، ويصفرون، ويغازلون. وانقضت الشقراء عليّ تتحسس كتفي وعنقي بأصابعها الجامدة، كأنني استحلت كائناً خطيراً، مزاحماً لها. فدفعتها بعيداً، أزمجر:

"سأقطع يدك إن لمست عنقي مرة أخرى!"

فأخرجت لي لسانها، وهربت. وسألتني الكبرى، بوجل:

"هل جننت؟ كيف ستعملين..."

قاطعتها:

"اهتمي بشؤونك!"

فلملمت هيكلها الدقيق، وركزت النظارتين على أنفها تنوي الانسحاب، فاستوقفتها أوشوشها عند الباب:

"أعطيني خمسين ليرة، أعيدها إليك آخر الشهر".

فضحكت بحزن:

"سأقرضك الخمسين ليرة".

– ٢ –

تعمدت وصولي في التاسعة والنصف إلى المؤسسة. فأدخلني الرئيس صالوناً صغيراً فرش على الطراز الأميركي. وبعد أن جلست، جلس هو على مقعد أحمر وبدأ كلامه:

"أنت جريئة. أنت شابة. أنت مثقفة. سأعهد إليك بمهمة بسيطة". وصمت.

رحت أمضغ كلماته في فكري:

جريئة. شابة. مثقفة. جريئة...

وخطر لي أن أمد، أنا أيضاً، رجلي على مقعد آخر، كالرئيس. لكنني لم أتحرك. وكانت أمامي قداحة غريبة الشكل تلهيت بإشعالها، وإطفائها... فنبهني صوته:

"سيجارة؟"

ومد يده بعلبة معدنية كانت مركزة قرب القداحة. فارتبكت وأنا أجيب:

"لا. شكراً... شكراً".

وفكرت:

أعتقد أنه لا يدخن، فهو لا يحمل في جيبه علبة سجاير.

وقف فجأة، فوقفت. وأشار إلى الباب ضاحكاً: تفضلي. فتبعته. اخترق مكتبه إلى مكتب صغير أنيق. وانتصب على العتبة يغمر بكفه الشاسعة قبضة الباب الناعمة، وقال:

"هذا مكتبك. ألا يعجبك؟ سأطلبك بنفسي متى احتجت إلى خدمة. لا داع لانزعاجك".

وأقفل الباب خلفه، ورماني بين أثاث هذه الغرفة الضيقة.

لم أفهم حرفاً واحداً مما قاله. ولم أتحرك حتى سمّرت نظري على خشب الباب اللماع. ثم بحذر، بحذر، انتزعت انتباهي عن الباب وألقيته على الحائط الحشيشي، فغاصت عيناي في عينيّ قرد فتان على الروزنامة. تبسمت، إذ منحتني صورة هذا المخلوق إيناساً في رهبة سكون هذه الغرفة. وجررت قدميّ اقترب من الصورة، ومددت أصابعي ألمسه براحتيّ. ودبت

حثيثاً في جسدي شجاعة على الحركة فالتفتَ أتفحص الأشياء حولي: المقعدين الأخضرين، ولوح البلور النائم على المنضدة، والمكتبة الصغيرة القاحلة، والشباك الذي بلع الجدار كله من الزاوية إلى الزاوية. عندها، تلاشى شعوري بالغربة والارتباك.

فالحياة تجري هنا في الاتجاه الذي تجري فيه عندنا.

أوليس والدي صديق الرئيس؟

صورة القرد الفتان وحدها علقت في رأسي بعد يومي الأول في المؤسسة. وفيما والدي يتجبر على كرسيه، وأنا أنتصب على قدمي مهزومة في حضرته، راضخة، مشلولة، يستجوبني:

"ألا تعترفين بي، مرجعاً أوحد لكل خطوة تنفذينها أنت وأخوتك؟ ثم من أذن لك بالتفتيش عن وظيفة؟"

هبّت رواسب خوفي منه تقطّع الكلمات في حلقي. وكبرت في حذائي شهوة طاغية لمرمغة أنفه، وسحقه.

ولكنني لبثت ذليلة أمامه، أودّ لو أشعل أذنه ببغضي له واحتقاري واستخفافي. أودّ لو أرميه من الشرفة إلى غرفة الجارة المترهلة، ليتعرى هو، ويمزق لها ثيابها، ولأقهقه أنا قاذفة في وجهه معرفتي لحقيقته، فأطفئ بوهجها عينيه!

وصرخ ينبهني:

"ألم تسجلي اسمك في الجامعة الأميركية؟ ألم أسدد قسطك؟"

أنعشتني فكرة الكذب عليه، فشرحت بهدوء:

"التقيت صدفة برئيس المؤسسة في نادي النسور، فعرفني لأول وهلة أنني ابنة صديق حميم له. وأبدى إعجابه بتفكيري العميق، وشخصيتي المتينة. واقترح أن أنزل إلى المجتمع أعرفه على قيمتنا ومواهبنا!"

نجحت،

فقد تبدد اللون الأصفر عن رأس أنفه الدقيق. واتسعت حدقتا عينيه. وقطب جبينه يخمن اسم هذا الصديق.

فتجاهلت فضوله، وتماديت في إثارة اهتمامه:

"وما لاحظ الأستاذ سعيد بدر ترددي، حتى صفق بيديه، متأسفاً: أريدك كوالدك مندفعة. لماذا أنت متخاذلة؟ أنا مؤمن بأن والدك ينتظر منك التفوق في عملك هذا. لا، لن يعارض... يعارض".

أحدثت كلمة "يعارض" نزاعاً في نفسه. فتبسم باعتزاز، يبدي:

"أوه، سعيد، إنه دائماً هكذا: متحمس أهوج. لكنه صديق وفي، قضيت معه ساعات عصيبة في إيران. ألمانيا. شمال أفريقيا..."

ماذا أصابه؟

ولاحت على عينيه غلالة حزن دفين، وهول قاس، فشرح:

"كنت أنجز صفقة تجارية، وكان هو في إجازة..."

والدي، مثلي، يكذب: أيعتقد انني لا أعرف ماضيه؟ وانني غير قادرة على استنتاج ماضي رئيس المؤسسة من صداقته له؟

وانتشلنا ظهور والدتي على الباب من بحر الكذب الذي غرقت فيه، ودفعته إليه.

مسكينة أمي، إنها تثير استهزائي بضحكتها المتقطعة، وتثير خيال المرأة المترهلة في حدقتي الوالد، لكن وقع ضحكتي العنيفة هذه ساعد على شل تصلّب الوالد المتحكم، فصرفني مؤنباً:

"إذا كنت ستصرين على العمل، فأنا أنبهك إلى أنني لست هيناً، مغفلاً. إنني لست أعمى".

فكرت:

الناس عنده صفقات تجارية لا يخسرها أبداً... وهزني نقمةً شهيق أمي وهي تدنو لتغرز أصابع يدها اليمنى في شعري المشذب:

"متى؟ متى قصصت شعرك الجميل؟ لماذا مسخت هيئتك الرقيقة البريئة كرأس صبي شرس؟ ألا يكفيني عناد الغلمان من أخوتك؟"

لم أرفع نظري عن شفتيها، تدفع من بينهما تأنيباً شعرياً، مؤثراً. فهي تندب خصلات ناعمة أتاحت لها أن تترعرع وتنمو وتتهدل على كتفي. فسهرت على نظافتها، وتفننت في تسريحها وغنت لها حكايات، ساذجة، حفظتها: شعر لينا أضواء نجوم. شعر لينا يفوح بأريجه، كالياسمين الأبيض المرشوش على أغصان شجرتنا الممددة على سور الحديقة. شعر لينا أروع شعر بين الصغار.

كانت عنايتها بشعري تلقنني فن الغرور والتعجرف، فأصبحت صفة الكبرياء تلاحقني أينما توجهت. وكان أن ازدادت سيطرتها عليّ.

ومنذ أشهر، وفي حفلة تخرجي من الكلية، انسكب في سمعي حوار بين شابين:

"من هي ذات الشعر الرقراق، المشتت على كتفيها؟"

"إحدى زميلات أختي، يجب أن تكون إحدى زميلاتها".

"أتوسل إليك أن تقدمني إليها، فشعرها مدهش. مدهش". عندها، انسحبت من الحفلة، أصمم على التخلص من حواجز تخنق قيمتي الإنسانية. وصممت أيضاً على سحق إرادة والدتي التي تتلهى بنحتي صنماً يسبّح لها.

وأرسلت اليوم إرادة الوالدة وسيطرتها، مع إعجاب الشاب ودهشته، إلى سلة زبالة، إلى البحر، إلى قعر البحر، إلى الشيطان.

ولم أجرؤ على الالتفات ومواجهة استنكار الوالد المصر على الصمت. فما زلت أخافه، وأنا أصارع عنيدة لاستكمال قدرتي على مواجهة العالم كله.

ثم تلاطمت حولي تهديدات الوالد، وتكدست عند قدمي حين نجحت في ردّها عن مسمعي:

"يا بنت، رأي من استشرت؟"

فكرت:

هذه تهديدات بالية. لو أوجدا فقط أسلوباً جديداً للتوبيخ لأعجبت بهما، وتسليت بسماعه.

واندفع الوالد على الفور يبتدع عقاباً مستحباً:

"ابتعدي. اغربي عن وجهي. لا تدعيني أراك قبل أن يطول شعرك..."

والدي أحمق.

كان عليه أن يتلمس سأمي من رؤيته كل يوم... كل يوم... وكان عليه أن يعذبني باجباري على مصاحبته من بزوغ الشمس إلى منتصف الليل.

ملأت حلقي بابتسامة فرحة، أخفيتها وراء شفتيّ المنكمشتين. واستدرت لأبتعد. أحسست بلسع نظراتها المتوعدة على رقبتي، فحككت رقبتي بأصابعي. ورماني سعال الوالد في ماضيه:

شب في أسرة متوسطة الحال. ومع أن هواية والده الوحيدة كانت الانجاب، فقد اشترى قطعة أرض قام عليها بيت قديم، وفتح دكاناً لبيع الخردوات في سوق أبو النصر.

ويكتفي والدي بهذا التفصيل السطحي عن أسرته، في حديثه عن ماضيه، ليمسي هو بعد ذلك المحور الأهم في تشييد أمجاده وأمجادنا.

تنازل عن حقه في استكمال دراسته، ليعاون والده في تصريف البضاعة المكدسة في زوايا الدكان، بينما هذا الوالد البسيط يمج التنباك طوال النهار عن رأس نارجيلته. وأكب على العمل لا يكل، كدولاب الطاحون، ليزداد، بعد كل مساء، رأس مال الأسرة في الأدراج.

وتوفي الوالد. وأصر هو أن ينجز أخوه دراسة الطب في المعهد الطبي الفرنسي، وأن يستقل أخوه الآخر بمحل له وحده وقد جهز أخواته، وزوجهن.

وتزوج هو...

واشتعلت الأرض بنيران الحرب العالمية الثانية، فإذا الحياة تتبدل وتنطلق بسرعة جنونية، وإذا نحن أثرياء: نحن أغنياء حرب.

هل هو الحظ، أو الصداقة، أو تدبير من الله...

أو... أو... يقظة والدي، هي التي رفعتنا إلى مرتبة وجهاء المدينة؟ إنهم يطلقون على أسرتنا تعبير "من كرام وجوه البلد". بضعة أكياس خيش من القمح كان يطرحها والدي في الزاوية قبل الحرب، منحتنا أسهماً عديدة في أكثر الشركات، وأبدلت البيت القديم بشارع تربض على جانبيه بنايات فخمة، وهي ملك لنا.

كان كيلو الطحين بقروش قليلة، قبل الحرب.

وإذا كيلو الطحين الصافي بأكثر من ليرة بعد الحرب.

فإذا نحن بومضة عين، كما يحدث في الأساطير، أثرياء.

بكل وقاحة: يتباهى والدي بجهاده في جمع الثروة، وبصداقته للفرنسيين في عهد الانتداب. كأن هذه النعمة التي يضيع فيها، ليست من حرمان ألوف الأسر التي أطعمها الفرنسيون طحين الترمس والشعير والذرة البيضاء، على شكل إعاشات.

— ٣ —

تلهيت في المؤسسة، طيلة الأسبوع الأول، بالتفرج على الغرفة الحشيشية اللماعة الصغيرة، فتمرنت ساعات على اتخاذ جلسة مناسبة على الكرسي المتحرك. وأفرغت الأوراق الباهتة التي كانت تحشو أدراج المكتب، وأطعمتها لسلة المهملات المعدنية، المتخفية في الزاوية. ونفخت، بفمي، الغبار المتكدس على مجلدات كتب تاريخية قيمة، كانت مطروحة بإهمال في المكتبة.

ولم أجد مجالاً للتفكير بهذه الوظيفة العجيبة.

واليوم، وبعد أن ألقيت نظرة فاحصة أنقب عن عمل إصلاحي في الغرفة، وبعد أن تأكدت من أنني لم أكلف بعد بأية مهمة جدية، فتحت الباب واندفعت، إلى البهو الضيق، فاستجوبني الحاجب بعينيه الوقحتين، وتبسم... فعبست، وأزحت ستاراً كان يتهدل على أحد المداخل، في الجهة اليسرى، ودخلت... فإذا أنا في ممر واسع مضاء. تراجعت فوراً، فإذا الابتسامة تتفجر ضحكة سخرية على فم الحاجب: "هذه الجهة خاصة بالمراحيض".

تصنعت عدم المبالاة، والغيظ يدير رأسي،





وفتحت باباً يلي الستار، ودخلت.

ترى، ألم أحدث صوتاً؟ أكان ينتظر مَن في الغرفة قدومي؟ أأموات هؤلاء؟

تقدمت،

فلم ترفع الفتاتان رأسيهما عن الأوراق، ولم يتوقف قلم الحبر عن الجري بل لم يخفف سرعته على الأقل. فحيرني تصرفهما. واقتربت من الفتاة النحيلة، وحدقت في وجهها فإذا جفناها ترتعش. وتحركت شفتاها آلياً بتحية سريعة، وتابعت الكتابة...

أهي تخافني؟ وهل أنا أخيف الناس؟

ويحها. على كل، سألاطفها. سألتها:

"ما هي وظيفتك هنا؟"

أجابت بصوت رزين، عميق:

"أنا المشرفة على الأعمال التحريرية في المؤسسة، وهذه معاونتي".

التفت لأشاهد "هذه"...

هذه، قالتها دون أن تحول نظرها عن الورقة، دون أن يخفف القلم أيضاً من سرعته، دون أن تتحرك يدها الأخرى المرتمية على الخشب.

هذه، أحسن اسم يلائم الفتاة الثانية. هذه، مثل هاتيك، وتلك، وأولئك... مثل معظم الفتيات اللواتي تصادفهن في كل مكان.

هذه، فتاة عادية تافهة، لا يميزها عن غيرها من الفتيات إلا استخدامها في المؤسسة.

تركتهما ودخلت المكتب المجاور، فإذا فيه أربعة رجال:

كان أحدهم يقف وسط الغرفة، تحت الضوء، يقرأ جريدة الصباح. فمددت رأسي لأنقب عن نظارتيه، فإذا عيناه سليمتان فاتنتان، تحولتا عن السطور وتبسمتا لي، كأنهما تعرفانني وكأنني شيء عادي في هذه الغرفة المستطيلة، كبقية الأشياء!

وإذا الرجل الثاني، معلق بحديث تلفوني، يتمتم:

"نعم. لا. سأسأله. هكذا قال الرئيس... نعم... لا... إنه أمر..."

ووضع السماعة بهدوء، وفتح درجاً وسحب منه أوراقاً أطال التحديق في حروفها.

والثالث منهمك بنسخ نشرة إخبارية أجنبية مسجلة على شريط خاص.

أما الرابع فكان يعرب النشرة.

لبثت حوالي نصف ساعة مسندة ظهري إلى الحائط أبحلق فيهم، فلم تتوقف أدوات أجسامهم عن الحركة والسعي.

كانوا يبرحون الغرفة، ويعودون إليها. يشعلون سجايرهم ويمتصونها بصمت ثم يعصرونها في المنفضة. ولما طلب أحدهم "سندوتش" استبشرت خيراً... ومرت دقائق بطيئة وإذا بصبي في العاشرة من عمره يرتدي مريولاً يخترق الغرفة كالسهم ويصطدم بي ولا يعتذر. ولم يرتم الرغيف الافرنجي من يده... رمى الصبي الرغيف في زاوية المكتب، وارتد مسرعاً كما دخل. وقضم الرجل طرف الرغيف دون أن يرفع نظره عن السطور، دون أن يرى بماذا حشوا له الخبز.

صارعتني أفكار عنيفة متباينة قبل أن أغادر المكان:

ففي المدة القصيرة اللامتناهية التي قضيتها في المكتب مع هذه الأدوات، خيّل إليّ انني تجمدت!

وقبل أن أترك المكان حركت أصابع يدي، فتحركت. حركت رأسي، فإذا هو ثقيل. حركت رجليّ، فإذا هما مسمرتان في البلاط.

وعدت مرة ثالثة، ورابعة إلى تحريك يدي، ثم رأسي، ثم رجليّ... إلى أن تمكنت أخيراً من مغادرة المكان إلى مكتبي.

ألا يكفي ما رأيته، لأعرف مع من أعمل؟

يكفي أن أراقب هؤلاء، يكفيني أن أراقبهم لأتوصل إلى استنتاج فكرة عن نوع العمل. عن الأجرة. عن الدوام. عن السلوك... فصممت ألا أتعب نفسي بالاحتكاك بسائر الموظفين في المؤسسة.

عن الكرسي المتحرك تسرب الخوف إلى عيني، تسرب إليهما من الشباك، من المكتبة الصغيرة، من المقعدين الأخضرين. أنا خائفة!

أسدلت الستائر. أحكمت إغلاق الباب بالمفتاح. زررت معطفي.

عبثاً، لا زلت خائفة! هذا السكون يخيفني، هذه الأدوات الانسانية التي تعمل بصمت وبسرعة، تخيفني!

نهضت عن الكرسي ووقفت أمامه وضربته بقدمي فارتطم بالحائط وانطرح على الأرض فاقداً رجله بعد أن كسر زجاج المكتبة الصغيرة الوديعة القابعة في الزاوية،

فتبدد خوفي.

وضحكت منتصرة أحبس أنفاسي بكفي. هيا. ليدخل أحدهم مستطلعاً، منقذاً. وانتظرت. لكن الباب ظل مقفلاً. وعاد السكون من جديد، يخيفني!

لتنصبَّ اللعنة عليهم! فهل أصيبوا بالطرش؟

أنا أرتعش!

كان عليّ، لأستأصل الرعشة من جسدي، أن

أقابل إنساناً، أي إنسان، أحارب بهدوئه خوفي: سأرى الرئيس. يجب أن أراه. يجب. يجب.

بادرني الرئيس مبتسماً بفتور: "ألا زلت هنا؟"

فكرت:

ماذا؟ عليه أن يستفسرني عما حدث في غرفتي منذ حين، ولا يفصل مكتبي عن مكتبه إلا باب واحد؟ ألا زلت هنا! ألا زلت هنا، كأن وجودي في المؤسسة لا يعني أكثر من تصلبي على الكرسي المتحرك. أو عدم تصلبي على الكرسي المتحرك.

تصنّعت مثله ابتسامة، وقلت بوضوح واتزان وبساطة:

"أنوي دخول الجامعة. جئتك أطلب وقتاً كافياً. ممكن؟"

فقاطعني ساخراً:

"ألا تعرفين أن الجامعة باشرت إعطاء دروسها منذ أكثر من شهر ونصف الشهر؟"

هذا الغبي! لا يدري أن والدي هو الذي سجل إسمي، وهو الذي دفع القسط، وأن غايتي من دخول الجامعة هي إضاعة ساعات غزيرة... غزيرة... غزيرة...

في سكوتي سألني:

"هل أنت متأكدة من ضرورة التحصيل الجامعي لخلق الشخصية المثلى؟"

إنه محق، لماذا سأتمم تحصيلي الجامعي؟

نسيت، في غمرة انهماكي بالوظيفة، انني مرتبطة بالجامعة، وانني مسؤولة عن تغيبي المستمر عن المحاضرات!

سأكون من أوائل الناجحين، أليس كذلك؟

عضضت شفتي السفلى أقطع ابتسامة تفجرت فيها، فسألني الرئيس رزيناً:

"هل تثقين بي؟"

تساءلت: ما معنى الثقة؟ ثقة. محبة. صداقة... هذه الكلمات حروف فارغة.

وبدا على وجه الرئيس اهتمامه الصادق بي فجازف متطوعاً يعلمني أصول الثقة والمحبة والصداقة... قال بلين:

"أنا، وبكل تواضع أعترف لك: لم أكمل دراستي الجامعية حتى ولا العالية، ومع هذا نجحت في الحياة وذللت صعاباً سوداء كانت تبدو لغيري مستحيلة التذليل. اسألي والدك، فهو يخبرك كيف كنت وحيداً مناضلاً عصامياً..."

هززت رأسي ضيقاً، وحاولت أن أبدو لطيفة، وأنا أجيبه:

"أما أنا فأترفع عن الاستعانة بمثل أعلى، أجبل حياتي داخل الاطار الذي صيغت فيه حياتي..."

فخفف قساوة إجابتي بضحكة صاخبة، وقاطعني قائلاً:

"لا بأس. لا بأس. هذه أفكار صبيانية. تنقصك الخبرة. سجلي مواعيد غيابك عن المؤسسة، وارفعيها لي غداً. مع السلامة..."

أنا مدينة لهذه السلامة بوصولي إلى الجامعة، إذ كانت تدفعني إلى الجامعة قوة سحرية لاواعية. وتلاشت من رأسي كل صورة وكل فكرة وكل حركة. ولم يعد يتحرك في جسدي إلا يدي اليمنى تضغط على دفتر هزيل وقلم حبر.

قفزت من الترام واجتزت البوابة الحديدية الشاسعة ومشيت معتزة، نشوى، أعب في صدري هواء بارداً، يطير لتوه عن رؤوس الأشجار المحتفظة بخضرتها.

وفجأة نبهني صوت ناعم:

"هذه كلية الهندسة. بناية كلية الآداب والعلوم في منتصف الطريق الأسفل. أجل، من هنا..."

وقفت متعجبة، فأشارت بيدها تحدد لي موقع البناية، مرحبة مستبشرة. فاندفعت أركض...

أظنها تمهلت تتبعني بنظرات مستغربة ساخطة: فأنا لم أشكرها ولم أهز لها برأسي ممتنة، ولم أبادلها ابتسامتها المطمئنة. كان عليّ أن أشكرها... لكنني كيف أشكرها وأنا متأخرة عن موعد المحاضرة الأولى في الأدب الانكليزي، وكلمة شكراً ممزوجة بابتسامة ثقيلة، مذيلة بنظرة فاحصة، تتطلب مني وقتاً ثميناً، فلهذا لم أشكرها.

وعلى مدخل البناية،

خطر لي أن أسجد على العتبة، الساكنة، الفواحة بروائح الكتب والمقاعد والأقلام والجفاف. وجررت قدميّ متهيبة... ثم تسمرت، أتلفّت خلفي، أفتش عن عين تتفحصني فإذا حولي أبواب مغلقة، لماعة، صامتة، يعكر صفاءها وقع أقدام تقترب ثم تبتعد. ولمست قبضة باب معدنية باردة، ثم أدرتها، فانفرج الباب عن قاعة تعج بالرؤوس المتحركة.

هنيهات خاطفة، أبدتها على العتبة، والأستاذ يتجاهل ظهوري وأنا أعكر انتباه الطلاب، وأحول مجرى انسياب أفكاره. ثم نقلت قدميّ بحذر، لأحتل مقعداً فارغاً في مؤخرة صفوف المقاعد.

لا أسمع صوت الأستاذ. إنني أراه فقط. أرى حركة شفتيه، ويده النحيلة المحلقة في فضاء هذه العلبة المضاءة، والتاريخ المبهم على اللوح، ورؤوس الزملاء.

أكاد أختنق!

لماذا أقفلوا شبابيك هذه العلبة المصبوغة جوانبها بالكلس الأبيض؟ هل يعتقد عميد الكلية أن في كلام الأستاذ سحراً يمنح الحياة، وإن كنا في معزل عن الهواء؟

سأختنق، فهل لأنني لا أسمع حرفاً من كلمات الأستاذ؟

إذن، رأس الزميل هو الحاجز الذي يمنع انسياب العبارات إلى أذني. الزميل أمامي يلهث في تنشقه لأنه يأخذ حصتي وحصته من المعرفة الخالدة، المتفجرة من فم الأستاذ...

مددت يدي لأطلب منه الانحناء قليلاً، فآخذ نصيبي الذي دفعت ثمنه، من المعلومات القيمة عن الأدب الانكليزي... حركت يدي لأمدها فنامت نظراتي على رقبته العارية فارتعشت! كانت رقبته كالطريق الأسود العاصف في الخارج. وشعر هو بضيقي على المقعد، فأدار رأسه... فأصبت بدوار وأنا أراقب التفاف رقبته في الفضاء، كزوغان طريق أسود لا متناهٍ يشق أديم السماء!

انتشلت معطفي عن يد المقعد بعد أن يبس الزميل أمامي، وبعد أن دوّت في أذنيّ كلمة هاربة من صدر القاعة "الرومنطيقية". وبعد هنيهة وجدت نفسي في الشارع. وكان الشارع يتنهد بعد عاصفة جبارة.

واشتريت مجلة فنية أميركية، من زاوية مطعم فيصل، وتسلقت الترام إلى البيت.

— ٤ —

تمر في فكري تشبيهات طريفة للحالات النفسية التي أتخبط فيها منذ باشرت العمل.

فأنا قصر فخم، كأروع قصور أباطرة روما. ولهذا القصر عبيده ودكاكينه وحيواناته. فيه كل ما يلزم لتوليد الحياة، لا يحتاج إلى معونة من خارجه، مع أنَّ الأسوار العالية تحاصره. ومع أن بين الأسوار والطوابق خنادق تتدفق بالماء، لا تجف ولا تتيح لأحد الولوج إلى المملكة الكبرى.

هكذا أنا، عالم مستقل لا يمكن أن يتأثر مجرى الحياة فيه بأي حدث خارجي لا ينطلق من ذاتي، من مشكلة الانسان في ذاتي.

وصحيح انني أسكن مع أمي وأبي وأختيّ السمراء والشقراء وأخي الدلّوع بسام، لكنني لا أحسهم: إنهم تماماً خارج السور في عالمي. إنهم حتى خارج قنوات المياه الطافحة.

لكن هذا الغموض الذي يلف الحركة في بيتنا بعد الاعتداء المسلح على مصر، إثر تأميم قناة السويس، أصبح يعكر صفو اندماجي الكلي في تفهم تشابك قضايانا الجديدة.

أنا أصرح، وبكل بساطة، انني لا أملك عقلاً متيناً يقدر على حل العمليات الحسابية، ومطالعة رواية لشكسبير ونقدها، وإيجاد حل لقضية فلسطين، أو لقضية كشمير، أو لقضية الجزائر.

ما يشغلني هو كيف سأمرّن أعصابي على تحمل الاصغاء للمحاضرات إلى نهايتها، وكيف سأناقش الرئيس بالوظيفة التي لم أتسلمها إلى الآن، وكيف سأمشي بحذائي الذي يرفعني للمرة الأولى سبعة سنتمترات عن الأرض: هل سينكسر وأنا أهرول في الشارع؟

وتسرب حوار الشقراء والسمراء إلى أذني تحت اللحاف والشرشف الأبيض مع دقات الساعة معلنة السابعة صباحاً:

"جننت جاكيتي الجلدية كل الزميلات. وتمزقت لمياء الرفاعي غيرة، وقلبت شفتيها تتصنع عدم الاكتراث وهي تسألني: "بكم اشتريتها؟ هل عنده اللون الأحمر؟" كلهن ينتظرنني على المدخل، يتفرجن على ما تكرم به الوالد من ثياب رائعة لهذا العام. أوه ما أكرم والدي، أنا أعبده".

"... هل رأيت بنت السفير؟ إنها موضوع مضحك. تُميت ضحكاً، تصبغ شعرها بألوان عجيبة، براقة، كلاعبات البهلوان في السيرك، وتنتف حاجبيها لترسمهما بألوان مختلفة. إنها شيء يثير القرف".

وأخرس الهمس دبيك على الباب، ثم لهجة الوالد الجافة المرتجفة:

"صباح الخير يا صغار..."

فكرت، وأنا أتصنع الاستغراق في النوم: سنظل عنده صغاراً، ولو ملأ الشيب رؤوسنا.

"ألا تزال لينا نائمة؟ أوه هذا الكسل الوسخ".

واقترب من سريري وهو يتابع:

"وأنتما ألم تتأخرا عن موعد درسكما؟ هيا اقتربا وقبلاني، سأسافر بعد ساعة إلى القاهرة..."

انتفضت تحت اللحاف: إلى القاهرة؟ لماذا، والقاهرة تستمر بنضالها، بدفاعها، بإصلاح خرائبها وأخطاء المستعمرين؟

أظنه رآني أتحرك، فرفع اللحاف عن رأسي،

وقال هازئاً:

"أراهن أن شعرك سيتدلى عند قدميك وأنت تودعين بابا قبل رحيله، هيا..."

وسحبني من الفراش، فوقفت على رؤوس أصابع قدمي ليقبلني في جبهتي، ولأتفّ على خده قبلة عجلى.

وتوجه بعد دقائق إلى المطار وحده، وفي سيارة تاكسي. وفسرت أمي تصرفه هذا، بأننا يجب أن نكتم سر رحيله عن كل الناس.

هكذا أمرتنا باصرار: يجب... فلم يقنعني إيضاحها المقتضب، فتبعتها إلى المطبخ انتزع منها أسباب سفر الوالد:

"لماذا سافر زوجك إلى القاهرة؟"

فارتعدت شفتاها، وسألتني:

"أوليس زوجي والدك؟"

ضحكت، أمسح لطخات حياء قانية طبعها سؤالها في بياض عينيّ، واستفزّزتها بوقاحة:

"نحن استغلاليون، قولي أنه راح يجني ثروة حرب جديدة! قولي الصدق، لأنني معجبة بك وبه! قولي..."

فانقضت على عنادي تنهشه باعترافها:

"كيف تفهمين كفاح والدك وأنت لا تطالعين إلا أخبار الممثلين: صورهم الإباحية، أخبارهم الشاذة، طرائفهم البايخة؟ هل أمسكت يوماً جريدة، أو مجلة محترمة، واهتممت بما يجري حولك وفي العالم؟ أدخلي إلى غرفتي تجدي على المخدة جريدة الصباح، وطالعي فيها الأنباء... ثم توقفي عند نبأ هام: "اختفى الثوم من الأسواق، وارتفع سعر البصل". خبر صغير في سطور، لا يقرأه أكثر الناس، إنما..."

فكرت،

إنما هو نبع ملايين لنا!

وهزّ اعتراف أمي عقلي الخامل:

"نحن الذين اشترينا كمية الثوم من الأسواق، وقسم كبير من محصول البصل، وسيشتري والدك البصل المصري ليسفره إلى ميناء بيروت. ومن ميناء بيروت، إلى موانئ فرنسا، وانكلترا!"

كدت أختنق برائحة الاستغلال. برائحة الملايين من الفرنكات والدولارات، برائحة الثوم الكريهة، برائحة البصل.

وشدتني بكتفي: "اقتربي مني. لا أودّ أن تسمعنا الخادمة. اقتربي".

ببطء، ببطء، وكأنني بطلة جبانة، في قصة بوليسية رخيصة، التصقت بها، فأفرغت في أذني قولها:

"إذا نجحت الصفقة سيفتح والدك لكنّ، لكل واحدة منكن، حساباً في البنك بمبلغ خمسة وعشرين ألف ليرة لبنانية!"



هذا رائع حقاً!

لقد أُصلح الكرسي في مكتبي. وكُسيت المكتبة الصغيرة زجاجاً فاخراً. وتمدد على الملف أمامي جدول بين تكاليف التخريب الذي أحدثته، وانذارٌ من مدير المؤسسة بعدم التكرار، وإلا حسم المبلغ من راتبي. هذا رائع حقاً.

وأروع منه أن يستدعيني الرئيس إلى مكتبه: سيعهد إليّ أخيراً بالمهمة.

فمد يده بمفتاح، صوّبه إلى وجهي، وبابتسامة متحفظة تتمطى بين عينيه وبين رأس المفتاح الصدئ. ومددت يدي، وقشعريرة تهيّب تسري في ركبتيّ وأجفاني. ثم تراجعت فوراً، أبدل اتجاه اليد المنطلقة بمفتاحها إلى صدري. ودفع الرئيس المعدن البني على راحة يدي، وتنهد مرتاحاً، كأنه يربط بيدي أثقال أجسام كل من يعملون في المؤسسة: الأثقال التي أنهكت قواه زمناً. وأمرني:

"تفقدي الصندوق كل صباح. هذا هو مفتاح الصندوق. في الطابق المحفور تحت الأرض".

الصندوق... الصندوق... وانسحبت أغمغم: سأتفقده.

وما إن احتواني مكتبي مع المفتاح الصغير، حتى زحلقت يداً على الحائط أتحسس زر النور، ونحن في قلب نهار صحو، ورفعت اليد الأخرى إلى فمي أبارك المهمة الجديدة في المفتاح الصدئ، وغلفته بقبلات اطمئنان.

ثم انطلقت إلى الجامعة تغمرني فرحة دافئة. لهذا خلعت معطفي على باب قاعة الدرس. وتنشقت الهواء الصقع نشوانة. وغطست الصدر، والساقين، والخصر في النور الباهت المحبوس في القاعة... فإذا على صدري، وساقي، وخصري وخز عيون شابة، حادة، يؤلم انسيابها الهادئ مواضع الجمال في جسدي!

فكرت:

ربما تحبك هذه الرؤوس الفتية، العطشى، عبارات غزل تقطرها في أذني دعوة بريئة إلى السينما. أو لعلها تصقل نظرات تجردني بها، ولفترة قصيرة، من جلباب صمتي الساحر. أو

لعلها مارست من قبل مهام الرجال، وتعتقد الآن أنها قادرة على إرغامي لفّ الحرائر على القد وسكب العطر على الكتفين وجرع كأس بعد كأس، فنمزق معاً تحفظي المستهتر ونذيبه بين الأقدام في رقصة مجنونة!

اخترت مقعداً منفرداً وفتحت قلم الحبر، بعد أن بسطت الأوراق أمامي. وانتصب الأستاذ على المقعد يملي علينا أسماء بعض المراجع، فانحنت الرؤوس تتبع قفز الأيدي في تصوير الكلمات. واستحال الزملاء حولي قطيع ماعز أسود الشعر، وأشقره، يقضم الأوراق البيضاء. هل الأوراق بيضاء؟ لا، الأوراق تلوح لي ملونة، بينما أكملت عملية المسخ عطسات أحدهم المتتابعة، ثم حركة غيره المزعجة.

فصررت أسناني، وأنا أهم بفتح حقيبتي لانتشال منديل أنشره على وجهي. واصطدمت نظراتي بالسقف، ثم انحدرت هابطة على وجه الأستاذ الذي يراقبني بانتباه.

الأستاذ يراقبني، وفي الوقت نفسه، يدفع من بين شفتيه الذاويتين جملاً منتظمة، معبرة، ناضجة. فتمهلت على شفتيه أتساءل: ترى، كيف يتمكن هذا من القيام بمهمتين دقيقتين: تفحصي، وتركيب المعاني؟

وأهملني الأستاذ لحظة وهو يردد:

"هذا مرجع بالفرنسية، باهظ الثمن، لكنه مفيد وهام. وفي مكتبة الجامعة مؤلفات قيمة تعالج موضوع الفلسفة".

ثم عاد إلى مراقبتي ينبهني بصوته المعبر: "هيا، سجلي كل حرف أبعث فيه هداية لك، للأجيال من بعدك! أنتِ رأس فارغ. لا. أنتِ ورقة نشّاف تمتص مداد معرفتي!"

تبسمت هزءاً، فحسب الأستاذ أنني أتعمد إغراءه، فخبأ نظراته بين وجوه سائر الطلاب، وضاع في القطيع الجائع يطعمه، ويسقيه، ويحميه.

ورميت نظراتي على حقيبة يدي: هذا هو، إذن، أستاذ الفلسفة؟ ولماذا يحاصر معظم أساتذة الجامعة أعينهم بتلك الزجاجات الوهاجة؟

ولملمت الرؤوس أجزاءها، ثم عادت تتدلى على فم الأستاذ تجرع المعرفة. وتحسست بأصابعي المفتاح الصدئ، ثم دوّنت اسم الكتاب الهام، وانتشلت معطفي، وانسحبت من القاعة كما ننسحب من دار للسينما، مللنا فيه مشاهدة فيلم بطيء الحركة.

ورويداً... رويداً... رويداً... هدد إيقاع الرذاذ على الطريق اضطراب أفكاري التي عكرها صوت الأستاذ الحار:

ففي الهنيهات القليلة ما بين المقعد الذي تركته والباب، سكب أستاذ الفلسفة في نبراته رجاءه أن أعود إلى مقعدي... أعود إلى الإصغاء، فالذوبان، فالاضمحلال في حبكة الجملة المنمقة، الساعية في أثر الجمال، والحق، والإله الواحد، عند أرسطو. أفلاطون. سارتر. هيدجر... وغيرهم من الفلاسفة والمتفلسفين!

واتخذت في الهنيهات القليلة، ما بين مقعدي الذي تركته والباب، الحل الصائب:

لن أعود إلى مقعدي ولا يهمني ماذا يفرض أفلاطون، ولا ماذا يثرثر الأستاذ. الأهم عندي: المفتاح الصدئ في الزاوية، والوظيفة المتجمدة فوق الصدأ فيه، ومبلغ الخمسة وعشرين ألف ليرة.

ورفعت رأسي أجني من شجرة السماء الغائمة في الشارع مياه ناعمة منعشة، وفكرت:

أمامي بضع ساعات كانت مخصصة للجامعة، باستطاعتي الآن الرجوع إلى المؤسسة لتفقد الصندوق. فرجعت إلى المؤسسة.

قفزت الدرجات القليلة وشققت بعيني طريقاً مضاءاً في عتمة البهو، تحت الأرض، أفتش عن صندوق ركزه الرئيس على الجدار، ليدفع الموظفون ما بين طرفي الشق المحفور في رأسه شكواهم كتابةً، وبظرف مختوم.

رأيت الصندوق!

رأيته، في مجاهل هذا البهو، يجاور بيت العنكبوت، فأسرعت أهدم مأوى الحشرة البناءة، وأرتفع على رأس حذائي رافعةً يدي في الفضاء لأتمكن من الوصول بالمفتاح إلى قفله. وأدرت المفتاح فدوت في رأسي أصوات متنافرة تنطلق إلى أذنيّ. وخيل إليّ أنني أسمع تنهدات استغاثة آتية من جوف الصندوق. فارتبكت، وجاهدت بعناد لأستمر واقفة على رؤوس أصابع قدميّ، ففشلت للمرة الأولى في فتح الصندوق، وفي الاحتفاظ بتوازني، وفي تحطيم بيت آخر للعنكبوت!

وعدت من جديد إلى الارتفاع على رؤوس أصابع قدميّ، وإلى إدخال المفتاح في قفله. وهدمت حائطاً للعنكبوت، فخيل إليّ هذه المرة أن الأصوات قد فترت. وتريثت مطمئنة إلى قرب لحظة النجاة.

وفتحت الباب، باب الصندوق... ووقع أقدام توشوش في أذنيّ، مهددة بخيبة مرة. مددت يدي إلى جوف الصندوق والأقدام تتقدم في العتمة. وتلفت خلفي فإذا أحد الموظفين ينحدر على الدرجات بانتظام. ثم رماني بنظرة ساخرة. وكتم ضحكة غيظ. وغاب في الممر المتفرغ من البهو المعتم.

الصندوق فارغ.

فارغ؟ والموظفون أداة تعمل بصمت.

فارغ؟ وأنا المكلفة بتلبية أية أمنية لهم، وتحقيق أية مطاليب لرفع مستواهم...

أقفلته، وارتفعت إلى الطابق الأعلى، حيث البهو السابح بالنور، حيث الرسوم الزيتية الفنية على الحيطان، حيث المقاعد الجلدية الأنيقة، حيث قضبان الزنبق.

— ٥ —

تطايرت أمي، من ركن في البيت إلى ركن، لتغمر كل واحد منا بذراعها الهزيلة، ولتقرأ له برقية الوالد: "الرحلة موفقة. أقبلكم".

فكرت: ماذا ستكون هدية الجارة المترهلة؟

لا، لن أرهق فكري بتوافه الوالد وكل الناس. فالصندوق في المؤسسة يحيرني، حتى أنني لم أعد أستوعب الحركة في الشوارع، وأنا أعيش من صباح لصباح كي أتفقده. وهذا الصباح وجدت الصندوق فارغاً.

فهذا الصندوق الضائع تحت الأرض في الظلام، يحرك في نفسي مقتاً ونقمة على هؤلاء الموظفين. فهم لا يكتفون بالخرس. إنما هم يمرون بي كأنهم يمرون بجماد لا يحرك في وجوههم خلجة استحسان، أو لفتة اكتراث، أو بريق اهتمام. أرى في عيونهم، حين أصادفهم على الدرجات في انحداري إلى البهو المظلم، وصعودي إلى البهو المضاء، إخفاقي في أنني لن أدرك غايتي: امتلاك ظروف مختوم.

أكرههم.

أما الرئيس، فهو دون شك يضحك مني خلف هذا الباب الذي يفصل مكتبي عن مكتبه. فنهضت عن الكرسي المتحرك، وأدرت قبضة الباب بحركة ثائرة، وبادرني الرئيس بكبرياء:

"لا أدري إذا كان عندك ما يوجب إضاعة وقتي، نعم، تكلمي. وتكلمي باختصار. ماذا تطلبين؟"

فتعلثمت غضبي:

"لم تسألني عن الصندوق".

فقطب جبينه يفكر: "أي صندوق؟"

ثم شرح بهدوء:

"آه، لا حاجة بي إلى سؤالك عن أي أمر، وأنا أعلم الناس بما يجري في المؤسسة، وفي طول البلاد وعرضها".

هيه. أ... هـ...

حاولت أن أتكلم، لكنني آثرت مراقبة هذا الرئيس المخيف، فإذا وجهه يفيض ثقة بنفسه.

فاستفهمته:

"وما الغاية من وجودي هنا؟"

فأجاب:

"سؤال وجيه. أنت هنا تتمرنين على المهمة التي ستقومين بها في المستقبل".

أي مستقبل؟ أية مهمة؟

وأجبته:

"لكن... لكنني لا أقوم بأي عمل هنا. فهل هذه طريقة حديثة ابتكرتها أنت في التدريب؟ سنبحث ذلك غداً، لأنني مضطرة إلى زيارة إحدى المكتبات لشراء مرجع فلسفي هام..."

فاستوقفني ناصحاً:

"لا تستعملي ضمير الجمع، حين تتكلمين عن نفسك. لا يحق استعمال "نحن" إلا للملك، ولرب الأسرة. وبما أنك واحدة من الشعب، وبما أنك آنسة، فابدئي منذ اللحظة بالتدرب على عدم استعماله".

تقدمت خطوة... ثم تراجعت. أرجعني وجهه الدنيء، المقنع. وتابع قائلاً:

"أنت مغرورة. ومهمتك هنا قتل الغرور في نفسك، وبيدك هذه".

ودل على يدي اليمنى، فحركتها... ونزلت إلى الشارع الكبير أتساءل:

"أيطمع هذا الرئيس بتبديل نفسيتي؟ أتصوّر له ثقته بنفسه أنه سيتغلب عليّ، لأنني مجبرة على طاعته، ما دمت مجبرة على نيل استقلالي وحريتي؟

ليتني قادرة على ترك المؤسسة. ليتني... لكن، أين سأبعثر وقتي؟

وعلى مدخل المكتبة هب البائع عن كرسيه وفرك أصابعه السمراء النحيلة، بعضها ببعض، بحركة مصطنعة. وانحنى قليلاً يرحب بقدومي. فضايقتني ابتسامته السقيمة الجافة المتأرجحة بين عينيه وشفتيه. ولأخفي ضيقي، ابتلعت بنظراتي أكداس الكتب المصففة في كل شبر من زوايا المكتبة وجدرانها، والشاب الأسمر يقفز أمامي مردداً:

"أهلاً بك، آنستي. أهلاً... ماذا تأمرني؟"

وانتزع بعينيه، عن شفتي، اسم كتاب "فلسفة ما وراء الطبيعة" لمؤلف فرنسي. وانفجر معي في ضحكة مرحة، وأنا أتعثر بتهجئة اسم المؤلف على الورقة. وقال:

"أنت لا تحسنين اللغة الفرنسية، وتودين شراء كتاب بالفرنسية؟"

وتفحص وجهي متابعاً:

"لا أستغرب تلبية كل الفتيات مطاليب

أستاذتهن. فالأساتذة كممثلي هوليود: حلم كل العذارى، ونعيش، نحن الشباب، عمرنا في الحرمان!"

ماذا؟ هل هذا الشاب معتوه؟

حرقت ملاحظته كل أثر للرئيس، والموظفين، والصندوق، والمنزل من خاطري... ولم يبق فيه غير صورة أستاذ الفلسفة، ويده المحلقة في الفضاء كيد الحاوي تسلب كل انتباه، وكل قوة، وكل شخصية فردية.

ونبهني قوله:

"ثمن الكتاب أربعون ليرة... مهلاً! مهلاً... كلميني!"

لم أتمهل، فقد أغضبني أن يسيء بائع مبتذل إلى أستاذي. ألا يعلم هذا أنه يحقرني أنا بتحقيره؟

وتوقفت في سينما "الكابيتول" أشاهد صور فيلم الأسبوع المعروضة على لوحتين كبيرتين من الخشب. هذا "كيرك دوغلاس" في فيلم "فان كوخ". ثمن تذكرة السينما ليرة واحدة وعشرة قروش، وثمن الكتاب أربعون ليرة، فلماذا لا أفني ساعات بعد الظهر في السينما، بدل أن تفنيني هي في الجامعة؟

استدرت، فتعمد شاب دفعي، ثم تلقاني بيده معتذراً... وحملني قاطع التذاكر على ابتسامته إلى شباكه، ورسم على التذكرة نمرة الكرسي، دون أن يطلب رأيي في اختيار المكان، ودون أن يتيح لي فرصة الاعتراض. طمأنني:

"أحسن مكان في القاعة. كرسي على الطرف. في الصف السادس. ألا يرضيك ذوقي؟"

فاصطبغ وجهي بندم أصفر، لاقتحامي هذه التجربة الخطرة: مشاهدة فيلم وحدي!

آلمني قاطع التذاكر، وهو يتأكد من أنني سأغامر:

"تذكرة واحدة، أليس كذلك؟ واحدة... واحدة..."

الوقح.

جابهته: "أجل، تذكرة واحدة..."

وأفرغت كل نبرات التحدي في كلمة واحدة وطويت التذكرة الحمراء، وأخفيتها في المفكرة الصغيرة وسحبت رجلي إلى البيت: لاملاء مكاني حول مائدة الطعام.

انشغلت، والأهل يمضغون طعامهم بتأن، ومرح، بمراقبة اللوحة الزيتية التي اشتراها والدي في حفلة افتتاح معرض التصوير والنحت الخريفي، في قصر الأونيسكو، وعلقها في غرفة الطعام. فأثارت اللوحة قرفي: امرأة وسخة، مبعثرة الشعر، ممزقة الثياب، تجر خلفها طفلاً، كأنه جرو مريض يمد يده للمارة.

وقفت، فتمهلت الأفواه في مضغ طعامها، وغيّرت مكاني حول المائدة، بحيث أمست اللوحة خلفي، أراها في المرآة أكثر حيوية، وأكثر إثارة للقرف. أردت بذلك مجابهة البؤس في اللوحة والاستخفاف بصاحبها!

لكن والدتي كانت تتفحص وجهي: أتراها اكتشفت أثر المغامرة الخطيرة؟

قفزت عن الكرسي واندفعت إلى غرفتي أتفقد بطاقة السينما... إنها هنا، تختبئ في المفكرة الصغيرة. عدت إلى المائدة أدحرج ضحكة على شفتي. وضحكت والدتي تسألني:

"كيف تسير أمورك في الجامعة؟"

أفرغت في فمي ملعقة شوربا تهرباً من الإجابة.

لو علمت أنني سأكون وحدي... وحدي، بدونها، وبدون أختي، وبدون والدي، في دار السينما!

لو علمت للطمت خديها، ولمزقت ثيابي أنا تمنعني من تنفيذ هذه الفضيحة العظمى!

انسحبت من غرفة الطعام هادئة، تتبعني نظراتها المستغربة وداعتي، وقد عودتها صداً عنيفاً بعد كل ملاحظة تبديها لي هي، أو والدي، أو أختي. وفتحت شباك غرفتي أتفقد حالة الطقس العاصف.

فإذا الشارع يغرق بالسيول الموحلة، والسماء مشدودة إلى الأرض بأسلاك حبات المطر الكبيرة، والمارة ينكمشون في مداخل البنايات، يرتجفون برداً. وإذا السيارات تعوم فوق السيول، كأنها صفائح من التنك المدهون، لفظتها الأمواج على الشاطئ، وراحت تغسلها. وإذا البحر يعوي...

رفعت رأسي، أحاول رؤية البحر الذي أخفاه والدي خلف البناية الشاهقة، فحرمني من أنس الحالم صيفاً. الشاكي، المنتحب، الغضبان شتاءً...

علمني البحر المستلقي على بضعة أمتار من بيتنا نسج الأماني وابتداع الأفكار. فحيناً تمنيت لو كانت الأرض مسطحة لأرى البلدان القائمة في الجهة الثانية من العالم، وحيناً تساءلت لماذا لا أمشي في اليقظة على صفحة الماء كما مشيت في حلم البارحة؟ وأحياناً كنت أسدّ أذنيّ بالقطن، أبعد أنغام عروس البحر المتفجرة من أعماق المياه الزرقاء، المتلألئة في ضوء القمر، أو أرهف السمع مستنشقة النسيم الرطب المتسلل من الشاطئ الرملي إلى سريري...





البحر يعوي.

لا، لن أنتظر صمته. ولن أنتظر جفاف السيول في الشارع أو عودة المارة إلى الزحف على الأرصفة المكشوفة لكي أتوجه إلى السينما. سأطلب سيارة والدي.

لا، لن أطلبها. لئلا أقدم تقريراً مفصلاً عن موعد ذهابي وعودتي، عن وجهة سيري، عن مكان نزولي، عن... وعن...

ارتديت معطفي الواقعي من المطر، وحزمت شعري بالشال وركضت تحت زخات المطر إلى محطة الترام وارتميت في أول سيارة مرت. دفعت للسائق ربع ليرة، ونزلت على مدخل دار السينما.

انتظرت مشتتة القوى، على المدخل. انتظرت لحظة انطفاء الأضواء لأتغلغل في الظلام إلى مقعدي. لا، لن أجرؤ على الوقوف في النور فتشير إليّ الأصابع: وحيدة... وحيدة... في السينما وحيدة... وحيدة.

أرعبني دنو شاب مني، يكلمني بوقاحة:

"لقد تأخر صاحبك، فهل تقبلينني بدلاً عنه؟"

عبست، وكدت أجن غضباً وخجلاً. فابتعد الطفيلي يردد: "أتمنى لك التوفيق..." فتمنيت له موتاً صاعقاً!

نزعت الشال المبلل عن شعري القصير، ثم خلعت معطفي وقفازي... وارتجفت ارتياحاً حين رن الجرس وانطفأت كل الأضواء. ورحب بي الموظف على باب القاعة بكلمة اطراء. ثم أرخى الستار المخملي العنابي خلفي.

وما تعلقت عيناي بالشاشة، حتى صوب الموظف في القاعة "البطارية" إلى وجهي، فقفزت إلى الخلف، واقترب مني مستفهماً:

"أين تذكرتك؟ وحيدة؟"

وحيدة... وحيدة...

لفظة وحيدة تسحق كل ذرة وعي في كياني، فأستحيل شيئاً ضعيفاً، متردداً، خائفاً...

سرت وراءهُ إلى مقعدي، ولم يلبّ طلب سائر المتفرجين في تعيين أماكنهم إلا بعد أن صفعني بنور بطاريته مرات متتابعة.

أنا وحيدة، فمن يحسبني هذا الرجل الأشيب الذي يحتل المقعد عن يساري؟ ثم من سيجلس على المقعد الخالي عن يميني؟ ليتني أحجز هذا المقعد، فآمن شر متفرج مزعج...

أين والدي ووالدتي،

لينظرا إلى مكانيهما يحتلهما غريبان؟ سيثوران، سيحجزانني في البيت. سيملآن جوانب الغرف تأنيباً... ثم، وبعد ذلك، فماذا سيتخذان من عقوبات؟ هل يعودان إلى نصب الحواجز لانطلاقتي وتعيين الحدود لها؟

لماذا يجب أن أرضى بمصاحبتهما في كل وقت يختارانه لمشاهدة فيلم يروقهما؟ لقد سئمت ظلهما: واحد عن يميني، وواحد عن يساري يصدان عني نظرات الرجال. سئمت... سئمت حراستهما، وملاحقاتهما، وسلطتهما.

ومع انني شعلة سأم، فالمقعد الخالي يقلقني. لا، لن يكون هذا القادم صاحب المقعد. اقترب... لا، لقد أحسن في حجزه المقعد في القسم الآخر من هذا الصف... مددت يدي وألقيتها على ظهر المقعد، أتمتم:

حقق إلهي رغبتي في أن يظل المقعد شاغراً... يا إلهي... يا إلهي... يا إلهي. وحلّقت مع الإله والمقعد بعيدة عن القاعة. ومرت دقائق الاستراحة بأمان، وأنا والإله والمقعد نتوشوش.

وبدأ الفيلم. وعاد الإله إلى سمائه مخفقاً، إذ احتوى المقعد ثقل المرأة المخضبة، وتعمشق انتباهي على الشاشة يضيع في حوادث الفيلم... لكن، عبثاً أحاول الاندماج في جو الرواية: أرى رؤوس الجالسين أمامي وأكتافهم، فكيف أتجاهل صف الأكتاف وصف الوجوه لأصل بنظري إلى الشاشة؟ كيف أصم أذنيّ عن طقطقة المكسرات خلفي، وعن ضربات حذاء الجالس بجانبي على الأرض؟

تململت ضيقاً على مقعدي، فشزرتني المرأة بكلمة: أوف... أوف... وفتش الرجل عن وجهي في الظلام. فسكنت ضجرة.

ولأرى مشهداً، كنت مجبرة – كما ننحدر السلم درجة، درجة – على القفز فوق رأس. ورأس. ورأس... عشرات الرؤوس... فحقل القمح على الشاشة.

ثم لأسمع نغماً، عليّ أن أتلقى صرير حذاء، ووعوعة طفل وتعليقاً بايخاً وتنفساً وزفيراً...

كيف؟ كيف أتجاهل جلوسهم، جلوس كل هؤلاء الناس حولي؟

مهلاً... يا لفظاعة المشهد: البطل يقرب يده من شمعة مضاءة. يقربها. يقربها. إنه يرميها طعاماً للنار. يرمي يده. النار تشوي يده!

لم أغضّ نظري، ولم أبعده بعد هذا المشهد على الشاشة. وعند تسللي في نهاية العرض، كان ألم مبرح ينخر يدي. ولم يسكن الألم فيها إلا بعد أن أقفلت باب غرفتي ولففت يدي بشاش أبيض.

ونمت ليلتي منهوكة الجسد، كجندي خاض معركة فاصلة.

– ٦ –

كنت مأخوذة بسحر البيان، في محاضرة "تاريخ الأدب" حتى كدت أنسى، في روعتها، مظاهرة الأمس في السينما، وضحكات زميلة ماجنة في مقاطعتها شرح الأستاذ وإثارتها تعليقاً هامساً بين صفوف الشبان.

ومد زميل مرح ذراعه صوب الزميلة الرقيقة، الوادعة، التي تجلس شبه نائمة بيني وبينه، وفي يده كومة من "الشوكولا"، وفي عينيها هي بريق نهم، مثير، يعب كل لذة. وأنزل كومة الشوكولا إلى فخذها المشدود بالبنطلون الأسود الضيق، وحف يده بالقماش الأسود، فمدت هي يدها تناغي حاملة كومة الشوكولا. وبيدها الأخرى أفرغت الحمل في جيبها، وتلفتت، تهرّب القطع اللذيذة اللماعة إلى كل فم... إلى أن جاء دوري.

طوتْ ركبتيها، ونشرت على وجهها غلاف تهيب. وحملت بيدها أكثر من قطعة شوكولا، واستدارت، منحنية، تردد:

"أترغبين في مرطب، يساعدك على هضم كلام الأستاذ؟"

على خدها رجاء ذليل لأن أذيب كبريائي وأنخرط في أساليب حياتهم الجامعية الحلوة، الصاخبة. وعلى جبهات الزمرة الملتفة حولي تلهف متوتر يراقب تأثير الدعوة. أما أنا فكم كنت أود لو أستطيع الزوغان في عالمهم. أود... لكنني أستخف بهم، بحيائهم، بأفكارهم. أنا أنضج منهم، أرفع، أجل!

ليتني أتمكن من تحقيق رغبتهم في التساوي بهم، في مضغ قطعة الشوكولا. وفتحت شفتي فازدحمت نظرات مبعثرة تتجمع على شفتي. واتسعت آذانهم، وأنصتت، فهم لم يسمعوني يوماً أتكلم. أكثرهم يعتقد أنني خرساء. ليتني ألتهم قطعة من الشوكولا! حركت يدي فقربت الزميلة الرقيقة يدها...

وبدل أن ألتقط قطعة الشوكولا دفنت يدي في جيب معطفي، وهززت رأسي أدخر كل الأماني في ارتدادها خائبة إلى صدور أصحابها!

وفي انسحابنا من القاعة، بعد انتهاء المحاضرة، التصقت بالحائط أحذر الاحتكاك بهذه الأجساد اللاهية. ثم تواريت في المكتبة، في وقت تتجمع الطالبات في القسم المعد لهن، ليعرضن الأثواب. وليحرقن السجاير. وليروين النكت. وليتباهين بمغامراتهن...

المكتبة غاصة بكل لون، وكل لغة، وكل مذهب. فكيف يريدونني أن أنسجم مع كتابي المفيد؟ كيف أستجمع كل وعيي في هذا التنافر، والتصارع، واختلاف الأهواء؟

في جناح الاستراحة تروي زميلة لبنانية لصديقتها الأردنية مشكلتها المعقدة: "نسيبتي عضو بارز في هيئة اتحاد الجمعيات لا تقبلني في الهيئة إلا وبيدي شهادة ناصعة البياض. حاولت اقناعها بقبولي، بتسجيل اسمي في



عدادهن. لكنها أبت، وأصرت على أن أحصل على الشهادة التي ستفتح أمامي كل أبواب المجد!" وتطيب الزميلة الأردنية خاطر صديقتها: "واستبدلته بشهادة! سنحصل في آخر السنة على المجد: أنا وأنت".

أما أنا...

أنا، هنا، مشدودة إلى كل وجه تائه، في اكتساب المجد، على الصفحات...

لماذا دخلت الجامعة؟ لأعد مجداً؟ أي مجد هذا الذي يعدونه؟

لماذا يراقبني هذا الشاب؟ يسعدني أنه يشعر بحضوري في المكتبة. عيناه صافيتان، لا تشتهيان. لا تناديان. لا تعكران. ضحك لي الشاب، وترك مكانه وغادر المكتبة. فجمعت أوراقي وتوجهت مضطربة إلى المؤسسة.

في سكون قبل ظهر هذا اليوم الممطر، رن جرس التلفون في مكتبي، فأسرعت، ورفعت السماعة... فردد العامل في أذني:

"أمرني الرئيس أن أحول إليك مخابراته. سيأتي بعد ساعة". وأقفل الخط.

جمدت على الكرسي، واحترت:

– كيف أجيب؟ ماذا أقول؟ هل أقوم بالدور الذي رأيت أحد الموظفين يقوم به؟ هل أكتفي من الجواب بترديد: لا. نعم. سأخبر الرئيس. لا. نعم. إنه أمر من الرئيس...

عاد التلفون إلى النداء. ألصقت السماعة بأذني، وصحت:

"نعم".

فسرى في رأسي صوت خشن، فيه رقة مدروسة:

"هنا السفارة (...). الأستاذ إذا سمحت". ثم استدرك موضحاً: "الأستاذ الرئيس".

فأجبته:

"متغيب. أطلبه فيما بعد".

وكأن الرجل سمع كلاماً مخيفاً. صرخ:

"ماذا؟ أعيدي ما قلته؟"

ولفظت جوابي ببرود: "أطلبه فيما بعد". وانتظرت أستطلع تأثير برودي في صوته... فسمعت الغضب في زمجرته:

"فيما بعد، تعني بعد كم من الوقت؟"

أحرجني سؤاله، فأجبته:

"أنت حر في أن تكلمه بعد ساعة. ساعتين. غداً... لك مطلق الحرية في اختيار الوقت الملائم أو..."

فزأر مقاطعاً:

"ألا تعلمين أن هنا السفارة (...)"

"طبعاً، أعلم..."

"أنت لا تعلمين شيئاً. أوَلست موظفة جديدة؟"

"نعم... نعم... نعـ..."

فأسرع يخيفني:

"طبعاً، أعلم!"

وأقفل الخط.

وتركني في حالة رعب وارتباك. وتجمعت الغيوم، كل الغيوم، في قطعة السماء الظاهرة من الشباك الوحيد، فأظلمت الغرفة، وتسلل إلى أناملي صقيع يوجع. وتراكضت الدماء في قنواتها المتشعبة في رأسي. وتلونت المرئيات حولي. المكتبة الصغيرة حمراء. المقعدان أسودان يلمعان. قطعة السماء خضراء، صفراء، بنية.

وإذا أنا خائفة. أخاف هذه الليلة الراعدة، الصاخبة، الموحشة.

أغمضت أجفاني، أردد: ألا تعلمين أن هنا السفارة (...)؟ السفارة (...) السفارة...

أكاد أختنق. فتحت أجفاني، واستبشرت بظلال نور شمس باهتة، شقت الغيوم وحلقت إلى وشاح الضوء الباهت المنشور على أديم الغيوم الداكنة... فلم أنتبه إلى أزيز الباب

الحديدي، وهو يفتح، وإلى امتداد رأس رجل في الظلمة الرمادية. ولم ألتفت إلى هذا الرجل الغريب المنتصب، أمامي... إنما صوته القذر، هو الذي قذفني من السماء إلى الغرفة الحزينة.

"هل اتصلت بك السفارة (...)؟"

ارتجفت.

وضحك اللعين، فاكتشفت أن في ضحكه أيضاً قذارة. لكنني اكتشفت أيضاً أن هذا الشاب يساعدني على إبادة السكون، والظلمة، والتشتت، فتبسمت. وجمدت عيناه. ودعوته للجلوس على المقعد يعيد إليه لونه الحقيقي. فأحنى جسده مستغرباً، ينقِّب في وجهي عن سر رقتي، وترحيبي. فسألته بشجاعة:

"والآن ماذا تريد؟"

فاصفر وجهه، وعجّل في مضغ علكته، وغمغم بضعف:

"ماذا أريد؟ أنا أريد؟ لا، أنا لا أملك إرادة. أنا مدفوع إلى تنفيذ تصرف ما. أو حركة. أو هدف..."

عبست، أوقفه... فمد يده يشير إلى وجهي، يأمرني:

"هيا، ابتسمي. العبوس يزيدك بشاعة".

الوقح!

هل أنا بشعة؟ أنا لست سمراء ولا شقراء. ولكنني لست بشعة.

أهملته لحظة، لأرى صورتي المعكوسة في زجاج الشباك الوحيد، فإذا الزجاج قاحل يغمر الجدار الأملس.

أنا نحيلة كوالدتي، فهل جمال المرأة في ترهلها؟

ودفقت نظرات غيظ على وجه الشاب، وفكرت منتصرة:

لا يهمني هذا القذر، ولا يهمني أي رجل غيره!

وكأنه أحس برائحة الصفة الكريهة التي غلفته بها، فقال:

"أنا زميلك في العمل، تركت مساء أمس بعض الأوراق على مكتبك".

وتساءلت في نفسي:

زميلي؟ مكتبي؟ لماذا يستعمل مكتبي؟

وأكمل:

"أنا موظف ليلي، أقوم بالترجمة: ترجمة المعلومات السرية!"

ذهلت، فأرعبني شرحه:

"وأقبض أنا وأنت أموال حلف أنقره!"

فهمهمت:

"حلف... أنقره..."

وفي هذيان همهمتي، تابع:

"يدفع لي الحلف أول الشهر. وتدفع أمي في منتصفه. ويدفع لي الأصحاب في أواخره. وأنا أرتزق من كل هؤلاء. من هذا المال أسد فم صاحب الغرفة النتن، وأدفع ثمن وجبات الأكل في المطاعم، وأجرة الكيّ، والتنقلات، والسجاير، والملابس، ثمّ المصاريف السرية!"

"هل أنا منحطٌ إذا واظبت على عمل في مؤسسة يمولها حلف أجنبي، بينما حكومة سوريا، حيث ولدت وحيث تستغلّ أمي أراضينا على ضفَّتي بردى، تعقد أحلافاً مع حكومة أجنبية أخرى؟ وليسمونني خائناً. فأنا لن أسحق لقمتي بقدمي، لاعدّ جباراً يقدس مبادئه الوطنية!"

وتوقف يقهقه بانفعال:

"أعذريني. لقد استعملت تعبيراً خاصاً في ميزانية الدولة. أنت تعرفين المقصود من هذه المصاريف، لست طفلة... لست..."

عرفتها، وسررت بقدرة تفكيري: نساء. كباريهات. مشروبات. قمار...

واستفسرني مصراً:

ومد يده، ينتشل أوراقاً صفراء من ملف مطروح على المكتب. وحدق في عينيّ يتهمني:

"لنكن واقعيين. هل المبادئ تطعم، وتسقي، وتلبس؟ نحن لا نؤذي أحداً. وما دام مالنا يعد تافهاً، لا يخدش، فلماذا لا نتمتع بمال الاستعمار؟"

وخرج...

وزمور سيارة الرئيس يجمد الكلمات على فم كل موظف في المؤسسة. وما سمعت وقع أقدام في مكتبه حتى أسرعت إليه، أخبره عن المكالمة التلفونية.

بدا لي الرئيس غامضاً، مخيفاً، حين أجاب:

"أنا عائد من هناك".

فصرخت:

"ماذا؟"

فلم يجب. وسألني:

غمغمت:

"لا شيء... لا شيء... لا..."

وأقفلت الباب خلفي، وتدحرجت على السلم، إلى البيت... فاستقبلتني والدتي على الباب مرحبة:

"أحسنت بقدومك مبكرة. عاد والدك من القاهرة. أعددت لك طعامك المفضل".

لم أكترث بترحيبها، ولم تفرحني عودة الوالد، ولم ترضني وجبة "البفتيك والبوريه". إنما، ولتفهم هذه المرأة، جئت مبكرة أنقب في هذا البيت عن صفتي. عن طابعي. عن الاطمئنان... لماذا أؤثر هذا الصحن الفرنسي على صحن المحشي والتبولة، والكبة؟

أنا لست فرنسية. وشكلي في المرآة يشهد بتحدري من الانسان الأول الذي عاش على شواطئنا منذ آلاف السنين، متوغلاً في شبه الجزيرة النيرة كلها. ومع أنني لست سمراء، ولست شقراء، فأنا من هنا. لست فرنسية... لست فرنسية!

تراجعت عن المرآة، حين انعكست فيها قطع أثاث ابتكرها الفكر الأميركي وزين بها والدي منزله. ودخلت الصالون العربي التقليدي، فإذا السجاد مصلوب على الحائط. وإذا الطراريح المخملية تجثم على مدود الخشب. وإذا الوجاق النحاسي يستعر بالجمر الأحمر وإذا المساند الجلدية التي أحضرتها محلات "الهندي" خصيصاً للوالد تتمدد في كل ركن. وإذا النارجيلة خامدة، حزينة في الزاوية، تنتظر شفتين تعلكان رأسها...

أنا في بيتنا ضائعة: لست شرقية، ولست غربية. لست حرة، ولست مستعبدة. لست شقراء، ولست سمراء!

وحين التففنا حول المائدة ترهقنا أكداس قبلات الوالد على جبهاتنا، قلقت:

هل نجحت الصفقة؟ إنه يزعجني بفحيحه، وهو ضائع بين الملعقة والشوكة وصحن الشورباء.

فأيقظتني الوالدة:

"ألا تأكلين؟"

"نعم... نعم..."

وانحنيت ألتقط الملعقة، وأختي الصغرى الشقراء تبتلع ابتسامتها والأخت الكبرى السمراء ساهية، بعيدة، تستعد لمحاضرة في علم الذرة. وبسام الصغير يستجوب الوالد: هل في القاهرة جنود أطفال؟ هل فيها دبابات تمشي على السطوح؟ هل يحمل الطفل مسدساً كبيراً، كمسدس والده الضابط؟ هل... وهل. فكأنما في رأس أخي الصغير ساحات حرب بضجيجها، ومآسيها، وعنفها وانتصاراتها، وبطولاتها. وما كاد يسأل الوالد: "لماذا أحضرت لي معك سيارة؟ أنا طلبت منك أن تحضر لي من مصر دبابة. لماذا لم تحضر الدبابة؟ لماذا؟ لماذا؟" حتى مسح الوالد شفتيه بالفوطة البيضاء وقتم وجهه وتفحص وجوهنا باستغراب، وقال:

"سآتيك بدبابة من لندن".

شهقتُ: سيصدّر البصل المصري إلى لندن؟

وحملقت الشقراء، مفكرة: هل ستتأخر أكثر وأكثر معاملة الخمسة وعشرين ألف ليرة في البنك؟

ولم تكترث السمراء للاسم: فإذا بحثت القضايا العلمية عندها اختفت البلدان والحدود والأسماء.

وانقضّت الأم على الصغير تواسيه وتجفف دموعه. وتحضن، في الوقت نفسه، وجه الوالد بنظرات عطف، وتمجيد، وإثارة.

وتكلم:

"هل تعجبك حقيبة أمل الشقراء وصندلها؟"

فهز الصغير رأسه، يجيب، وهو يسترق نظرة إلى وجه أمل: "إنها جميلة، لكنني لست بنتاً".

فأطلق الوالد ضحكة اعتزاز بولي عهده، ووعده، وهو يراقب حركاتي:

"سآتيك بدبابة من باريس! ما رأيك؟"

عندها، بكى أخي الطفل. تدفقت دمعاته اللؤلؤية على خده المستعر، وأصر:

"أريدها من مصر، ومن مصر فقط".

وضجر الوالد، وتخلص من عناد ولده مردداً: "سآتيك بها من مصر، لكن لا تبك... الرجل لا يبكي!"

وانسحبتُ من غرفة الطعام، إلى فراشي. فهذه الغيوم تعلن عن اقتراب ليل هائج. سيكسر عظامي خوفاً، ويسحقها.

– ٧ –



قبضت أخيراً أول مئتي ليرة، وبيد مرتجفة وقعت الجدول للمحاسب. فتمتم في أذني شكراً رقيقاً، وتركني مع رزمة الليرات، أشمها، أتحسسها. وأبحلق في نمرها. سأنفق كل هذه الليرات دون رقيب أو موجه. سأنفقها في ساعة واحدة.

وأطل رأس من الباب يقتل خلوتي براتبي الطفل. إنه وليد، الموظف الليلي في المؤسسة، رحبت به:

"أهلاً، وليد".

فأسعده ترحيبي، وأدرك أن فرحتي به انعكاس هائج للمبلغ السحري النائم بين أصابعي. فسألني:

"أتسمحين لي بتدخين سيجارة عندك؟"

"بل، ستدخن عندي سيجارتين!"

دهش، وغمغم قائلاً:

"يجهلك من لم يحدثك..."

فقاطعته بفضول:

"بماذا يصفني الموظفون: متكبرة؟ صلفة؟ بلهاء؟ ماذا؟"

وبلهجة خاملة، وفيما هو يحني رأسه، ويقرب عود الثقاب من فمه، سألني:

"وهل تكترثين أنت لأدوات تافهة؟"

فكرت غضبى:

هذا الشاب وقح، ولكنه يمنح المقعد الأخضر الذي يغرق فيه أنساً، ومعنى.

وسحب نفساً عميقاً من سيجارته، وحلقت نظراته مع كمشة دخان بيضاء، فأسرعت أحشر الليرات في الحقيبة فتلفت يراقب اختفاء يدي في جوفها، ثم ظهورها الفوري، ثم جمودها على الزجاج البارد. فأطلق ضحكته المؤلمة، وأبدى:

"أنت مثلي، لا فرق عندك، من أين يأتي المال. المهم أن تحصلي على المال لتمارسي به عظمة حريتك".

تمتمت. هل أنا مثله؟

لا، لست كأي شخص آخر. فهو يترجم المعلومات السرية إلى العربية في الليل، وأنا أذبح نهاري خلف مكتب أنيق، مرتاحة، صامتة، هانئة. فانتزعني من صمتي مقترحاً:

"هل تتناولين معنا العشاء؟"

تفجرت حروف دعوته في رأسي، تسد أذنيّ، وتفرش غلالة تيه على عيني. هذه هي المرة الأولى التي يدعوني فيها شاب إلى عشاء. وسرت في أعصابي نشوة غرور. شاب يدعوني للشعاء فهل ستضيء المائدة شمعات باهتة؟ وهل ستحيط بي وبه مزهريات ورد أحمر؟ وهل ستثملنا نداءات موسيقى، تنساب من زاوية مجهولة؟

خبأت نظري بين الأوراق أمامي: هل تتناولين العشاء. معنا؟

انتزعت نظري من الأوراق ورميته على وجهه، أسأله:

"هل تعتقد أنني مبتذلة؟"

ارتبك، محاولاً شرح نيته في دعوتي. فاستوقفته قائلة:

"ثم من هم هؤلاء الذين تدعوني للعشاء معهم؟"

فكمد اللون الأبيض في عينيه، وصرف بأسنانه:

"من هم؟ هم الشياطين اللذين يلاحقونني: فإذا مررت في الشارع، نادى أحدهم رفيقه: إلى أين يا مستر إيدن".

"ومستر إيدن هو أنا".

تبسمت، فكشّر متابعاً:

"وإذا صادف أن التقيت بغيره في مقهى، زحف إليّ وطلب من الكرسون أن يسرع في إعداد قهوة باريسية، لأن المسيو لم يتعود شرب القهوة العربية".

"والمسيو هو أنا".

وكبرت ابتسامتي، فصرخ:

"سأخنق أصواتهم السامة هذا المساء. سأدعوهم كلهم إلى العشاء. سأطعمهم من رواتبي. من قطرات الدم التي ينزفها جسدي في هذه المؤسسة. فيتحدثون عندها عن كل شيء، عن أسرتنا العريقة في دمشق. عن أجدادي الاقطاعيين، عن ظلال بساتيننا. عن أيادينا البيضاء في استخدام اخواننا الفلاحين وإيواء أطفالهم. عن ثقافتي المتينة التي تدر عليّ مالاً حلالاً. عن لطفي واهتمامي الرقيق بأصحابي...

"في رنة كأس. في تيار أضواء. في هسهسات كعب حذاء، اشتريتها لهم. سأمتلك ألسنتهم ليلة واحدة، لتستأنف هذه الألسنة سخريتها مني في اليوم التالي، وأنا على الرصيف. في المقهى. في أي مكان... لكن قولي، هل تقبلين دعوتي؟"

نرفزني كلامه. سألته:

"بماذا تصفني إذ لبّيت دعوتك؟ وبماذا تصفني إذا تمنعت؟"

فعجل يائساً يجيب:

"إذا لبيت، فأنت مثلي تقصدين الانتقال بعلاقتنا من مرحلة الزمالة إلى الصداقة. وإذا تمنعت، فأنت جبانة!"

فتحديته قاسية:

"أنا جبانة. ولا أريدك زميلاً أو صديقاً".

فهب عن مقعده فاشلاً، وقفز إلى الخارج، يدفع الباب خلفه بقسوة... فتنهدت. يريدني أن أكون مثله قذرة. هذا القذر!

وحملت حقيبتي، وتمخطرت في انحداري درجات السلم في المؤسسة... إلى السوق، في زيارة إلى كل الواجهات الضاحكة، المغرية.

لم يكترث لي البائع، في محل "كابري" في سوق الطويلة، وأنا أتفحص الكنزة الصفراء، وأزرارها الصدفية البراقة، في الواجهة داخل المحل.

البائع يخدم سيدة أنيقة، حسناء، تعج حقيبة يدها بمئات الليرات، فوظيفة هذا الرجل مسايرة لابسات الدانتيل، عاشقات الأثواب، جارفات أنابيب الكحل وأصابع الحمرة، ملتهمات الماس واللؤلؤ...

والمرأة تغص بضحكتها. يعني هذا أنها، حتماً، ستفتح الحقيبة. فلماذا، إذن، يكترث البائع لفتاة نحيلة لا تتقن الضحك، ولا تتذوق أسرار الأناقة، ولا ترى وجهها في مرآة، فتركته ذابلاً، قفراً، مهملاً؟

مسكين الرجل الذي يعيل هذه المرأة!

ومسكينة، أنا، التي أعيل نفسي، فيعجز راتبي عن تلطيخ عين البائع البيضاء!

انتزعت البائع من معركة إغراء يجبر فيها المرأة على فتح الحقيبة وتجبره هي على استعطافها، وتدليلها، وتوشية تمثال لجمالها... فسألته:

"ما ثمن هذه الكنزة الصفراء؟"

فاشتد البريق في عيني الرجل، وظهرت على فمه ابتسامة استخفاف. وأدار لي ظهره يعود إلى المرأة، مجيباً:

"بتسعين ليرة".

تسعون ليرة، ثمن كنزة من الصوف؟ قطّبت جبيني، والمرأة تشعل سيجارة، والبائع يرميني بالتفاتة ضيق توبخني: لا مساومة في هذه السوق. السعر محدود في هذه السوق. الكنزة بتسعين ليرة... لا مساومة... السعر محدود... السوق لأصحاب الملايين... لكل امرأة لها عائل... تسعون ليرة.

مئة ليرة، قسط الجامعة الشهري.

خمسة وعشرون ليرة، عيادة الطبيب الذي سأزوره لمعالجة السعال الحاد الذي انتابني... سأزور طبيباً غير طبيب العائلة. وحدي سأذهب لعيادة الطبيب. وحدي سأسمع نتيجة الفحص الطبي. وحدي سأبتاع الدواء من الصيدلية. وحدي...

فيبقى من راتبي خمسة وسبعون ليرة، منها أجرة تنقلي. منها ثمن حذاء عالي الكعب. منها ثمن قلم حمرة.

تسللت مبتعدة عن سوق الطويلة، ودخلت محل "عماطوري" أطلب من البائعة اللطيفة أحمر شفاه، ينسجم مع لون بشرتي، واعتذرت أشرح لها:

"لأول مرة ألطخ شفتي بالصباغ الأحمر. لست سمراء، ولست شقراء، فأي لون يناسب بشرتي؟

نبتت في عينيّ الصبية اللطيفة ابتسامة تدل عن مهارتها في تلبية طلبات الزبائن، وصففت أمامي على الزجاج كل ألوان الأحمر التي ابتدعتها دور الأزياء: كارفن. اليزابيت آردن. وستمور. ماكس فاكتور... أسماء كثيرة، من أميركا ومن أوروبا، فأدهشني أن يفني بعض الناس حياتهم ضياعاً في مزج لون، لشفة!

وما أحست البائعة أنني مرتبكة في اختياري حتى انقضت على لون فاتر هادئ، وشدت يدي تحف الرأس الناعم على ظهرها، ثم انتظرت لحظة وارتدت تفتح درجاً، وتنتشل علبة صغيرة لفتها بورقة شفافة، وسحبت دفتراً تسجل عليه... الثمن.

أهملت علبة الأحمر المناسب، وراقبت بوجل يد البائعة، وهي ترسم الثمن على الورقة. ليرة... ليرتان... ثلاث... أربع... أربع ليرات ثمن أصبع قزم، من الحمرة!

ويلزمني أصبعان منها، كل شهر، لتزيين عالم شفتي الشاسعتين. وأعادت لي موظفة الصندوق ليرة من قطعة الخمس ليرات، ومشيت سكرى، أشتري ثلاث شلل من الصوف، وسلكين من الألومنيوم، لأنسج وحدي: كنزة صفراء تكلفني ثلاثين ليرة فقط.

لا يفهمون في البيت أنني وفرت بشراء خيوط الصوف، وحبك الكنزة بنفسي: ستين ليرة. فقالت والدتي:

"سأشتري لك الكنزة من محل "كابري"، ولا ترهقي صحتك بنسج هذه الخيواط اللامتناهية".

وحذرني والدي:

"لن تنجزيها قبل عشر سنين، ووقتك موزع بين الجامعة والمؤسسة".

ونصحتني أختي:

"لفي خيطانها حول جسدك، بدل حبكها قطبة... قطبة..."

لو لم أباشر بنسجها، منذ رجوعي ظهراً إلى البيت، لبدلت رأيي. لكنني أشعر – وأنا أدخل صنارة في قطبة ملتفة على صنارة أخرى، ثم ألف الخيط، وأحرر رأسيّ الصنارتين من

الشبكة... وهكذا... هكذا... ليكبر النسيج ويكبر – بأنني إنسان يعطي: يقوم بعمل، ويجني نتائج هذا العمل. يسعدني أن ينتشر في البيت حوار مستمر: لمن الصوف؟ الصوف للينا. لينا تنسج كنزة. لينا أنجزت نسج الأكمام...

– ٨ –

فتحت عيني فإذا عتمة شفافة تتكدس حول سريري، وإذا سكون ثقيل يلف المرآة، والشباك المقفل، والكتاب... وحتى الشرشف الصوفي السميك.

بلباقة، وخفة، اندفعت إلى الشباك، لأختزن في غرفتي المخيفة ضوضاء الشارع. فلاحت سطوح البنايات، وجدرانها، وشرفاتها، والأرصفة، والاسفلت – لاحت كلها تشهق متنهدة، بعد ليل جنّ بأمطاره وعواصفه. وتغلغل صقيع حاد أصم إلى صدري. فأقفلت شباكي، وتراجعت أستعد للتوجه إلى عملي.

عبثاً أحاول تجاهل الكمد الأسود الذي ينخر عينيّ أمي. فلتتحمل وحدها همّها...

وزغت حائرة بين الحمام، والمطبخ، وغرفة الطعام: ليفتت همّها عينيها! يشتتني كمدها، ويستدر شفقتي عليها! ما ذنبي أنا إذا سافر الوالد إلى لندن في فجر هذا اليوم المزمجر، لينهي بيع الصفقة، فيغرس في معصمها حبات الماس، ويفتح لي وللشقراء وللسمراء حسابات في البنك، ويشيد لبسام الوكالات الفخمة؟

تكلمتْ أخيراً، تلطف من حدة نقمتي: "لماذا تأخرت هذه الخياطة؟ ها هي الساعة تعلن التاسعة صباحاً. انتهى النهار... توسلت إليه ليؤجل سفره، في سماء تعلقت فيها حيطان غيوم. ماذا يعيق هذه الخياطة الملعونة؟ قبل أن يسافر في ليل يمزقه الرعد، منح السائق إجازة... ثلاثون سنة، أضعتها في استقباله".

وفركتْ كفيها بثوبها، فوق الفخذين، ثم فتحت باب المدخل، ودفعته، واستوقفتني أمام باب المصعد، تصب على كتفي نيران حرمانها: "إلى متى سأعاني أعباء مسؤولياتكم؟ أنت تكرهينني... أنت..."

نزعت يدها عن كتفي، وقهقهت غضبي:

"ومن يجبرك على البقاء بيننا؟ هل أنا أرغمتك على الزواج والانجاب؟ هل أنا التي جرفت اللحم عن عظامك، لتستهوي زوجك؟"

ضغطت على الزر، وانحدرت، مع انحدار قطرات سوداء من عينيها: أنا معدومة التهذيب. أنا حقيرة. أنا...

وتهت في طريق يرتجف بعريه، بعد ساعات أغرقته فيها سيول المياه الموحلة.

وتمددت أمامي بلاطات الرصيف المربعة. وتكاثرت. فتبعتها ألفَ معها زوايا، وأبتلع منحدرات، وألتقي بقشور ليمون، داعبتني بزحلقة سليمة. وسحقت سجاير رماها عابر ربط رأسه بخصر نجمة تتألق خلف الغيم. واستنشق عنها هواء جبل بروائح التراب الرطب، المتصاعد من بين الشقوق حول المربعات الرمادية.

ولفظني الرصيف، فجأة، إلى مدخل المؤسسة الكبير، فتمتمت غيظاً:

من وضع الحدود لرصيفي؟

تنبهت تواً: أنا حقيرة... حقيرة، تافهة، حتى في هذه المؤسسة.

واختطفني من شعوري الذليل صوت البواب، يقترح:

"أتسمحين لي بمساعدتك، اليوم، في فتح الصندوق؟"

فاستبشرت مرحبة به: له شكوى في الصندوق. وتقدمني يغوص في الظلام، يرتفع على أكياس ورق... فزمت شفتيّ، أبتلع فشلي: الصندوق قاحل. قاحل... وكياسته هذه حتمها تراكم الأكياس، تعيق وصولي إلى الفكرة الحمقاء، الجبانة، التي يتستر خلفها الرئيس!

وشرح الرجل، يعتذر:

"سنرفع هذه الأكياس غداً..."

رأس هذا البواب فارغ. وغدي سيكون فارغاً. وهذه المؤسسة نفاية رتابة وجبن، وصمت مضطرب، وخوف حالك.

يدفعون ثمناً لخمولي مئتي ليرة شهرياً، أجرة فتحي الصندوق كل صباح، وإغلاقه! هذا المال يضغط على عنقي!

عصرت أصابع يدي، ووقع خطوات الرئيس في مكتبه تفتت هدوئي. أمي على حق. لن ينتهي هذا النهار! سيطول هذا النهار... لن ينتهي...

رفعت السماعة، ورسمت الرقم ١٤ على القرص المنمّر... فرنّ في أذني جرس حاد، تبعه صوت أنثوي يردد: "الساعة العاشرة والدقيقة السابعة والخمسون والثانية الأربعون... الساعة العاشرة والدقيقة الثامنة والخمسون... الساعة الحادية عشرة والثانية الثلاثون... الساعة... الساعة..."

أصبت بدوار عصف بنور عيني، فأغمضتهما، ودفنت رأسي بين ذراعي، وغفوت في وقت هو للحركة، والنشاط، والانتاج. وما استيقظت حتى رفعت السماعة من جديد، فردد الصوت الأنثوي:

"الساعة الثانية عشرة والدقيقة الرابعة والعشرون والثانية السادسة عشرة. الساعة الثانية...

دفعت السماعة على رأس الآلة السوداء الرابضة على الزجاج، وهربت إلى البهو، فاستأنست بوجه وليد يطل من أحد المكاتب. وحركت شفتيّ لأبتسم... فاستدار، ودفع الباب بقسوة في وجهي، فيبست في مكاني. ونشبت على شفتي حرائق سخرية من هذا الرجل القذر. واصطدمت نظراتي بنظرات الحاجب المتربص على باب الرئيس. وتراجعت إلى السماعة، لأحاصَر قبل ظهر هذا اليوم بأعاصير القلق المتدافعة في الرقم ١٤...

وفي الساعة السادسة عشرة، والدقيقة الثالثة، والثانية... تقريباً، أمرنا أستاذ الفلسفة: لنصغ!

وأصغيت...

أصغيت. ذبت آذاناً مرهفة، خلاقة، تلتقط أدق الاهتزازات... فسمعت زقزقة عصفور، يحط على غصن يابس في جنينة الجامعة. وضحكات الزميل القريب، أحسستها. إنها موجعة، تعبة. سأصرخ إن لم يكف هذا الخنزير عن تكديس قطع الثلج على رقبتي وخلف أذنيّ، وعن تفتيت أعصاب يديّ، وعن نزع نثر اللحم على ساقي! ثم أنا أتفهم بداية لقاء بين زميلين ينزويان: هو يغمزها مقترحاً، وهي تبتسم موافقة. أسمع حتى بقايا تراطم خشب الشباك، حين أقفله الخادم مساء أمس، واستغاثة العصفور، في الظلام، حين بعثرت الأمطار عشه...

إنما أمر واحد أخفقت في استيعابه: صوت الأستاذ المأخوذ في سكب طيب محاضرته على الزملاء.

لا، لن ينتهي هذا النهار...

جمعت أوراقي، وحشرتها في الملف الجلدي الأسود، وانتصبت أترك القاعة، وعيون الزملاء، والأستاذ، تحفر في ظهري ثقوباً، خيل إليّ أن الدم يتقطر منها ويسري تحت الثياب في ظهري... وأثارتني في فناء الجامعة دقات الساعة: السادسة عشرة والدقيقة الخمسون والثانية...

سيطول هذا النهار.

لكن، أيبتسم هذا الزميل لي؟ لي أنا؟

تلفتُ حولي، فإذا في برود هذه العشية الكئيبة، تنتصب الأشجار رطبة الجذوع، يمر بها الطلاب في اندفاعهم إلى القاعات وخروجهم منها فلا يهتمون، حتى بإلقاء نظرة على عريها.

وتعمد الغريب المبتسم الاحتكاك بي. وتوقف أمامي فرحاً يهمس:

"هالو..."

وأنزلق متخفياً بين جذوع الأشجار الرطبة، فعصف بي غضبي، يدفعني على الطريق العام:

هالو... هالو... أكره اللغة الانكليزية، أكره أن نؤدي بها تحية، كما أكره أن نؤدي بها صلاة! وكأن هذا الشاب، الذي عاش في مكان ما من البلدان العربية، لا يتمكن من أداء تحية بلغتنا:

هالو... هالو... هذه الكلمة تقطع هدوئي ببطء... الذنب ليس ذنب الزميل. فأنا لست سمراء، ولست شقراء. فمن أين له أن يفهم أنني من هنا، من لبنان؟

هالو... هالو... ها...

قبعت العبارة في رأسي تدق على أطراف أجفاني نغمة رتيبة فتمهلت على محطة الترام أذيق النقمة خرساً أبدياً. ولم يتفهم المنتظرون على الرصيف سبب انتظاري معهم. كلهم على الرصيف يراقبون طلعة الترام الزاحف من المنحنى، في الطريق المستقيم، إلى اللوحة الحمراء والبيضاء: موقف.

ووقف الترام، وتسابقوا إلى جوفه كسمك صغير يزدرده حوت جبار. وتدلى البعض منهم على المدخل، وتشبثت أيدي البعض الآخر بقضبان الحديد المركزة على الشبابيك. واتكأ شاب على كتف فتاة. وتحسس كهل ظهر امرأة عطرة. واصفرّ وجه طفلة، تراقب يد غريب تتنزه على صدر أمها...

واستغرب الجاثمون على الشبابيك، تخلفي الكسيح على الحائط الرمادي. ثم جرجرتهم الحافلة، وابتعدت تتبعها أضواء السيارات، ناقمة على تباطؤ العجلات في كرّها بين حافتيّ الخط الأجوف.

وتوافد الناس من جديد على المحطة، وإذا أنا أغوص... أغوص... في بحيرات أضواء حمراء، صفراء، تصبها دائرات قانية باهرة، رماها أصحاب السيارات فوق الدواليب.

للترام خطّه وسط الطريق. للسيارات مواقفها. للناس أرصفتهم. وأنا ضائعة، أفتش غريبة عن مكاني!

الوالد في لندن ينهي بيع صفقة البصل. نصيبي من نجاحها: خمسة وعشرون ألف ليرة لبنانية.

وأمي مع الخياطة في البيت، تفصل قماشاً مورداً، لتحفظ به مقاعد غرفة الجلوس.

والشقراء على بوابة كلية البنات الأميركية، تنادي هسهسة الحلق في أذنيها شاباً ماجناً، فيدعوها هذا إلى نزهة على الشاطئ الباكي.





في سيارة سباق طروب... والسمراء تجتر وقتها بين قلم، وكتاب، وعيادة اختصاصي في النظارات...

بلا وعي،

وجدت نفسي في بيتنا، فتساءلت: كيف وصلت إلى مأواي؟

وأدركت فوراً استسلامنا للعادة التي نصبت الجمل في الصحراء دليلاً، هذا الحيوان الذي تطبع العادة في مخيلته اتجاهات كل طريق يسلكه مرة واحدة... هي العادة المسكرة، إذن، التي دفعتني من الشارع إلى شبه القصر الذي أسكن فيه.

واستقبلتني الوالدة بضحكة مستبشرة، الخياطة هنا... منذ الصباح... فلم أبادلها فرحتها. واصطدم بي بسام وهو يجر السكة الحديدية، فلم أزجره. ومشيت باعياء إلى غرفة الجلوس، حاملة كيس "التريكو"... فارتبكت الخياطة، تصلح ياقة فسطانها، وتفرك أنفها، ثم تجمعت على ماكنتها متهيبة، تسترق لفتة سريعة إلى وجهي، من حين إلى حين.

انطرحت على ظهري، على المقعد، ومددت رجليّ على كرسي وفتحت الكيس الأبيض. أدنيت وجهي من فتحته أراقب الصوف الأصفر المختبئ فيه، ثم شككت رأس صنارة في القطبة الملتفة على الصنارة الأخرى، ولففت الخيط حوله، وحررته من رأس الأخرى، وعدت إلى غرز رأس الصنارة، ولف الخيطان. غرز... ولف...

فانتهى الدور الأول،

وتفتحت على شفتيّ رطوبة ابتسامة طريئة، انطبعت في عينيّ الخياطة، فتنحنحت مكانها تذيب كوم الصمت المتحجر على شفتها وشفتي، تسألني:

"ماذا تحيكين؟"

فأجبتها بلطف:

"أحيك كنزة لي، لي أنا".

وعجلت تتقرب إلي.

"لونها رائع. لكن يلزمك شهور لاكمال حياكتها..."

هذه اللعينة!

نبهت اللعينة دقات الرقم ١٤ على قرص التلفون، وأيقظته في كل حواسي، فراح يطلق صعيقاً دامياً في كل أعصابي! وتقلصت عضلات يديّ، فسقطت قطعة الكُم التي أحيكها، بين قدمي، وانطلقت تائهة إلى التلفون. الساعة العشرون والدقيقة الخامسة والأربعون والثانية والأربعون... الساعة... الساعة...

أخمدت الصعيق بضرب رأس السماعة مرات... مرات... عديدة... عديدة، وتراجعت إلى غرفة الجلوس، لتأمرني الوالدة:

"لينا، المائدة جاهزة. تناولي عشاءك مع أخوتك مرة واحدة في الأسبوع على الأقل. لينا، هل سمعت ما أقول؟ لينا..."

أراها تطعم الخياطة قطعتين من الكاتو. وأراها تلبس خاتم الزواج الباهت في يدها اليسرى. وأراها فخورة بحرصها على ثروة الوالد، واقتصادها، وتدبيرها: فهي تعد في البيت أغطية للمقاعد، بينما سيدة غيرها، في الظروف نفسها، تبدل كل سنة مقاعد غرفة الجلوس... وأراها هزيلة أكثر مما يتقبل الوالد!

لكنني لن أجيبها، فأنا أود أن أحصل على نتيجة ملموسة لمرور هذا النهار...

وهمست هي في أذن الخياطة كلمات تأفف من سلوكي، وحملت أنا كيس التريكو الأبيض، وانزويت في غرفتي أشك رأس الصنارة... وألف الخيط... ثم أسحب الرأس...

وتكدس دور فوق دور. وتتالت الأدوار. وكبر كمّ الكنزة الصفراء... ففكرت على مخدتي:

الكنزة أنا أصنعها، إنها لي، أملكها.

والوالد وحده، هو الذي يملك الخمسة وعشرين ألف ليرة.

منذ لحظات، تدلى الصندوق الصغير في فضاء قاعة المحاضرات، فتشبث كل انتباهي بطيفه الأزرق الباهت. وأهملت النظرية الفلسفية التي وعدنا الأستاذ بشرحها، يوم الخميس الفائت.

في تأرجح طيف الصندوق بين رأس الأستاذ، والسقف، تلمست أنني أشعل وقتي رخيصاً، في هذه القاعات الباردة. أشعله؟ لا. أنا أفنيه لأغذي النهج العتيق. السخافات. الفشل...

وكما دخلت القاعة، تركتها لا أحمل ورقة، أو كتاباً، أو قلم حبر... إنما تدلت في أصابع يدي المرتجفة حقيبة جلدية مغلقة على بضع ليرات لا تكفي لاستبدال جواربي المكرورة، بجوارب وطنية بخسة الثمن. كان عليّ أن أسحق قدم الرجل، وهو يدوس رأس حذائي. لكنه أشيب، مريض، لا يملك أكثر من خمسة قروش، أجرة الترام. وأنا أيضاً لا أملك الليرتين والنصف ثمن الجوارب. فلماذا ثقب لي جواربي؟

هل تكفي كلمة عفواً، تعويضاً عن خسارتي للجوارب؟

نحن أغبياء، خياليون!

وكل هؤلاء الطلاب المكدسين على حجارة في الفناء، غسلتها أمطار الليل، كل هؤلاء: حمقى!

اقتربت من الحلقة، مع بعض الزميلات، فإذا الجدال يدور بينهم عن المشروع الأميركي، لحل قضايا الشرق الأوسط. وإذا أحدهم يبدي بانفعال:

"الصحف عندنا مستعبدة. وهذه الصحف مجرمة، لأنها تنقل السم للقضاء على القومية العربية في المجتمع العربي كله، وعلى الأخص لبنان!"

وانتزع آخر منه الحديث، وأكمل بحماسة:

"ثم هذه الوكالات الأجنبية للأنباء. هي أيضاً كاذبة، تبيع أكاذيبها بجنيهات انكليزية ودولارات!"

فقاطعه ثالث:

"أما الشعب، أعني نحن، أي. أنت..."

ومد يده، ولمس كتفي، وتابع.

"وأنت. وأنت... وأنت... نحن جبناء، ضحايا، فالمشروع علقة تمتص دماءنا!"

الحلقة مؤلفة من طلاب ينتمون إلى البلدان العربية، يمر بها الطلاب الأجانب، فيقفون لحظة إذا سمعوا عبارة انكليزية، ثم يزمون أطراف عيونهم، ويبتعدون، حين يحمي النقاش بالعربية.

كل واحد من الزملاء يمثل منظمة اجتماعية، أو حزباً، أو إرادة فرد مسيطر. وانتظرت مدهوشة، صامتة...

وأحسست بالوحدة بينهم، وبالتفاهة، وبالضيق. وبدأت أمقتهم حين تحسستُ ضياعي في غوغاء مجموعهم. فهذه الرؤوس تحتوي أفكاراً مغلوطة، دخيلة، هي أخطر علينا من سموم المستعمر.

فتحت فمي لأتكلم، فتحركت الرؤوس لماعة في وهج الشمس: حمراء. سوداء. صفراء. عتيقة. جديدة. قاتمة... وتعلقت العيون بصدري المتمرد، الجريء. فتفحصت العيون بحذر، فإذا كلها جائعة، تستعد للغرق في بحار من دماء الشعوب كلها، لا لنشر الفكرة الاشتراكية، ولا لتوحيد الدول العربية تحت سقف برلمان واحد، ولا لاسترجاع فلسطين، ولا لتحرير الجزائر، كما اقترحوا منذ هنيهة. إنما، وهم الآن على أتم استعداد لشرب دماء بعضهم بعضاً، لنيل قبلة من شفة ثائرة، وللمسة نهد!

امتصصت شفتيّ، وغمغمت:

"ينقصنا الكفاح الايجابي".

فانتفض أحد الطلاب، وحدق في شفتيّ بعصبية، وأجاب:

"أوَتعتقدين أن رأيك في السياسة صائب، كرأيك في أزياء "ديور"، وحمرة "ماكس فاكتور"، وكل الروائح، والعطور؟"

الوغد!

وشعرت بكف زميلة تبعدني عن الحلقة شارحة: "هو طالب كويتي، أعتقد أنه لم يعتد سماع رأي امرأة في أمور تخص الرجال!"

فتركتها على محطة الترام، أتمتم: يعتاد، يعتاد، حتى موتنا هنا عادة...

وابتدرني الرئيس فور وصولي إلى المؤسسة، آمراً:

"سيصل إلى المطار الدولي الأمين العام للأمم المتحدة، سيتوجه تواً إلى السفارة الأميركية. ستنوبين عني بانتزاع بعض الايضاحات عن موقفه من الأحداث العربية..."

ماذا؟ أنا أقابل الأمين العام للأمم المتحدة؟

لكن، كيف يعهد إليّ بمثل هذه المهمة، دون أن يسألني إن كنت موافقة على تنفيذها أم لا؟

أيعتقد أنني قتلت كل معاني فرديتي، هذه التي أطلق عليها اسم: غرور الشباب؟ ثم من قال له أنني كففت عن استعمال ضمير الجمع في حديثي عن الفرد؟

حركت شفتيّ لأرفض... وعدت وأطبقتهما. أنا أرغب في أن أثبت لنفسي أنني قادرة على ابداء رأي في السياسة، قدرتي على اختيار لون وتفصيلة لثوبي.

وفي السفارة الأميركية، أدخلت إلى غرفة ضيقة، يشغلها رجل نحيل يلبس نظارتين. وبعد أن رحب الرجل بقدومي عاد إلى مكتبه، وتاهت عيناه في عناوين الصحف المكدسة أمامه.

كان الانفعال ظاهراً في حركاته. وكان يرسم دوائر حمراء حول بعض المقاطع، في كل صحيفة يتفحصها بانتباه. ودخل رجل ثان يحمل قدحاً من عصير البرتقال، قدمه إليّ قائلاً:

"نرجو ألا يزعجك الانتظار". واختفى.

ركزت قدح العصير على طرف المقعد، وأسندته بيدي. ورحت أراقب حركة السائل فيه:

لم أحلم يوماً بأنني سأقوم بعمل سياسي.

قد يكون عملي تافهاً، لا خطورة فيه أو بطولة. لكنني لم أحلم بأنني سأشرب عصير البرتقال في سفارة.

رفعت القدح، وأدنيته من فمي، فإذا رائحة غريبة تنتشر على وجهي، وتسري في أعصاب يدي... فارتجفت يدي بالقدح. خفت أن ينسكب على ثيابي. وخطر لي أن أنهض، وأقترب من الرجل، وأصب السائل على رأسه وأنفه، وعلى الجرائد. ثم أنتزع منه القلم الأحمر، وأنقر بطرفه الحاد على زجاج نظارتيه!

وقفت... فانتفض الرجل، ورفع رأسه حانقاً، وأمرني بلين:

"أرجوك أن تتفضلي بالجلوس. وهذه بعض الصحف، إن كنت ضجرة".

وعدت إلى الجلوس كما أمر، دون أن أفكر: لماذا يجب أن أعود إلى الجلوس، فلا أنقر مثلاً بالقلم على نظارتيه، أو أغادر السفارة؟ وعدت إلى مراقبة السائل.

ليت هذا الرجل يصغي إليّ، لأخبره عما يجول في خاطري الآن. فأنا سأخبره رغماً إن هو رفض الإصغاء، أنا أحلم...

لا! لا يجوز لي استعمال كلمة أحلم، لأنها تعني أمراً لا يمكن تحقيقه، أو أمراً تساعد الظروف على تحقيقه. وأنا لم أفكر يوماً بأمر لا أضمن امكانية نجاحه، ونتائجه، ومسؤولياته.

لا، لن أخبره لأنه لن يفهمني. سأخبر أمي في المساء، سأسجل هذه الفترة من حياتي في ذات أمي. ويكفي أن أنظر إلى أمي، لأنسى أنها هي الوالدة ويطالعني على وجهها: رجل يلبس نظارتين. قدح عصير. دوائر حمراء. جنود على المدخل.

أمسكت الصحيفة، فإذا هي مصرية، وإذا الدوائر الحمراء تكاد أن تحاصر الصفحة الأولى منها. وإذا الصحيفة - بصفحاتها الأربع - شتيمة كبرى في وجه من يحاولون إفناءنا!

وكأن الرجل استدرك أمراً ما، فهب عن كرسيه، وانتزع الصحيفة من يدي، وهو يتمتم: "معذرة! معذرة!"

وعاد إلى الغرق في الشتيمة الكبرى.

فتضايقت، وأفرغت العصير في فمي. وتصارعت في رأسي ملايين الأسئلة، وتمنيت أن أسأله سؤالاً واحداً. هل باستطاعتي إبداء رأي قيم في السياسة، كقيمة رأيي في تفصيلة الثوب الذي ألبسه، ونوع حمرة الشفاه التي ألوّن بها شفتيّ؟

سأسأله... وضحكت بمرح. فذهل الرجل ذو النظارتين! وهب عن كرسيه، وتركني في الغرفة وحيدة... ثم عاد بعد دقائق، ليقول:

"اتصل بنا الأمين العام، ولن يحضر إلى السفارة".

وتفحص وجهي منتصراً، يؤنبني:

"كان عليك محاولة رؤيته في المطار".

كان يتكلم. وكان صوته ينطلق من حنجرة خيل إليّ أنها غير حنجرته! كانت كلماته تتقطر من فمه في أذني، سلسة. سهلة. متتابعة... كأنها خيط ماء ينحدر في "مغسلة" بيتنا حين تفتح سميحة، الخادمة، الحنفيات، وتتلذذ بسماع نقيق انحدارها... ثم توقف، تماماً كما يتوقف نقيق الماء، بعد أن ينضب في الحنفيات.

ولم أمد يدي أصافحه عند الباب.

أفرغت كلمات الرجل ذي النظارتين، في أذن الرئيس، كما قالها: حرفاً، حرفاً، وبتسلسل... ثم توقفت أستطلع تأثيرها على وجهه، فلم يرفع نظره عن الأوراق، وضحك، قائلاً:

"ستنجحين في مهمة غيرها. لا بأس!"

هذه الـ"لا بأس" تثيرني!

إذا كانت "لا بأس": إنني سأحصل على المال في أول كل شهر، فأنا أريد أن أقوم بعمل ملموس مقابل المال. وإذا كانت تعني: لست قادرة على إبداء رأي قيم في السياسة، كقيمة رأيي في حمرة "ماكس فاكتور"، والروائح والعطور... فأنا سأثبت له ولغيره، أنني قادرة. قادرة...

- ١٠ -

بينما أنا أعبر مدخل مكتبة الجامعة، تسرب إلى أذني هذا الهمس المتقطع، بين زميل وزميلة:

"ما رأيك لو دعوتك إلى العشاء عند فيصل؟"

"فكرة مدهشة، رائعة".

والتفتُ، لتنشبك أمامي ذراع بذراع. وتنقلا، وأنا خلفهما، إلى فيصل...

وانتحيا ركناً منعزلاً.

وجلستُ خلف طاولة، حولها ثلاثة كراسٍ. وأدرت ظهري للباب، مواجهة كل مَن في المطعم.

هناك عدة طاولات فارغة في الوسط. أما الطاولات القائمة بجوار الحائط، وفي الزوايا، فيشغلها زبائن من الرجال والنساء.

ليس في المطعم امرأة واحدة تجلس وحيدة، مثلي، مغروسة على الكرسي.

أنا وحيدة.

نقلت نظري بين الكراسي، والحضور، فشعرت من جديد بتفاهتي، وأدركت أنني أحتاج إلى رفيق: إلى رجل يشغل فكري بأمور لم يتعودها... فلماذا لا أدعو، مثلاً، هذا الشاب الوحيد قبالتي إلى مقاسمتي الطعام؟ سأدعوه!

لكن، وإذا امتنع، فماذا سيقول عني؟

أفلا يحس هذا الشاب، أنه في حاجة إلى فتاة تجلس قبالته؟ أوَليست حياته جافة تطلب عطفاً، وحباً، ورعاية؟ ألا ترعبه هذه الليالي بأرقها، ونقصانها، ورهبتها؟

أظن: لا.

فهو وحيد، لأنه على الأرجح تعمّد أن يكون وحيداً. وبعد ساعة، أو أقل، سيتيه عن الوعي غارقاً في فراش معطر، والغرفة مضاءة بشمعة شاحبة، والستائر الحمراء مسدلة على النوافذ، والباب محكم الإغلاق... ثم يفيق من تيهه، حين يود، لا حين يتعب المنهل... ويرجع إلى غرفته، والصباح يضحك في جوانب بيروت، والناس، العمال من الناس، يزحفون على الأرصفة، إلى مصانعهم، والحارس الليلي يخبئ الصفارة في جيب سترته العلوي.

يرجع.

فلا يستجوبه أحد: أين كنت؟ ماذا فعلت؟

وأنا، أنا التي لن تفقد وعيها بأي ثمن، إذا رجعت إلى البيت في الثامنة مساء، طالعتني علامات الاستنكار محفورة في العيون: أين كنت؟ ماذا فعلت؟

هذا الوحيد يدخن سيجارة، وهو مشغول عني بقراءة جريدة ذات نزعة حزبية... راقبته دقائق وتساءلت:

هل ينتمي هو إلى هذا الحزب؟ أيملأ الحزب فراغ حياته؟

ضحكت.

فكلمة فراغ، والمشروع الأميركي الجديد، أثارت تعليقات لاذعة في أكثر الأوساط، عندنا، وإذا كلمة فراغ وحدها كافية لتصوير مشاكلنا السياسية الدولية الخطرة. وكففت فجأة عن الضحك، لتتسمر عيناي على الكرسيين الفارغين، وغضبت:

هذان الكرسيان يهزءان بي. إنهما يضحكان أيضاً. إنهما يحاولان أن يتساويا بي، فهل أنا كرسي؟

هل أنا كرسي؟

أشعر بأنني كرسي، بمجالستي للكراسي. لا، لست كرسياً. سأحرك كل عضو من أعضاء جسدي بحركة اختيارية، حركة لا تنجح الكرسي في القيام بها.

رفعت ذراعي، فكفَّ صوت المتكلم على الطاولة المجاورة عن سرد نكاته. وصفعتني رفيقته بنظرة قاسية، ثم غمرت وجه الرجل باعتزاز، تشجعه على إهمالي، ومتابعة حديثه... ووقفت أنا، وحملت الكرسيين، ونصبتهما بجوار طاولة خاوية، وعدت إلى مائدتي.

فهذه المرة الأولى أتناول فيها طعامي على مائدة غير مائدة بيتنا. فأنا إلى اليوم لم ألبِّ مع العائلة دعوة إلى وليمة، لأنني لا أتحمل منظر الداعين إليها، وهم يمدحون هذا الصنف، أو يصرون على الاستزادة من ذاك... وهم أخيراً يدرسون كل الحركات وكل السكنات.

فتشت عن "الكرسون"، بعينيّ، في زوايا المطعم، فإذا هو منهمك بتحضير مائدة لطالبين أميركيين. وعدت، فأفرغت جرعة ثانية من الشاي في فمي. لهذا السائل طعم غريب، لم أتذوق هذا الطعم للشاي، في بيتنا؟

عندنا في البيت، للشاي، كما للكوسى، للأرز، للمربيات، للفواكه، لكل أنواع المآكل، طعم واحد!

أنا الوحيدة في البيت التي اكتشفت ذلك. وتغضب والدتي، تغضب حين أتناول الحلويات أو الفاكهة قبل الحساء؛ حين أستعمل صحناً واحداً أصب فيه كل الأنواع الموجودة على المائدة، وأمضغ لقمة من هذا النوع، ولقمة من ذاك! تثور والدتي، لأنها تظن أنني نهمة قليلة الأدب، لا! لا، لأن لكل أنواع المآكل، عندنا، طعماً واحداً!

مسكينة والدتي! لا تعرف من الحياة إلا أن تشارك الرجل فراشه، وتطهو له الطعام، وتربي له الأولاد.

والوالدة بارعة في مهمتها. كنت أتلمس تفوقها في مهنتها هذه، في ضحكها المتقطع المطالب، الملح، وفي أثوابها المكشوفة الصدر، الحاسرة عن ثدييها.

منظر اللحم، لحم والدتي، يثير قرفي منها! إنها أنثى. إنها مصدر عطاء. إنها ينبوع يتدفق، تلزمه مجارٍ كثيرة، واسعة عميقة، ليصب فيها...

تحرم والدتي في أكثر الليالي. أحس ذلك، في ضحكها الحيواني، المذبوح. وفي مزاجها المتعكر.

ولا يتعكر مزاجها، وينحسر ثوبها، ويتقطع ضحكها حين تحرم فقط، بل حين يشعط الأرز بين يدي "سميحة"، وحين يشاكسها أحدنا. والغريب في نفسيتها، أن تعكُّر عنصر واحد من عناصر شخصيتها الثلاثة يكفي لإثارة العناصر الباقية!

أتمنى لو تتيح لي أمي فرصة لاعطائها بعض النصائح، ولمناقشتها فيها. لكنني لو فعلت، لما غفرت لي وقاحتي ودناءتي ولما صدقت أنني لم أعش حياة الأخذ والعطاء.

لا! لن تصدق أن زميلتي السورية، التي تزوجت منذ ثلاث سنوات، وكانت في السابعة عشرة من عمرها، قصت عليّ كيف يغتصبها زوجها كل ليلة، دون أن يدعوها للمشاركة. دون أن ينبس بكلمة. دون أن يمنح قبلة... هكذا، يغتصبها كأنها جيفة يعبث بها، ثم يرميها على السرير ويغادر الغرفة... فتتقيأ كل ليلة، بجانب السرير، على حافة الشباك... وما يأتي الصباح، حتى تنسى الليل، في تحضير طعام طفلتها!

انتهيت من تناول العشاء.

وأحسست بنشوة، وبارتواء، وبحرارة هادئة ثم مضطربة تسيِّر أفكاري، فتركت المطعم. وعادت تستيقظ على الرصيف المبتهج، حاجتي إلى انتصاب قامة رجل تعلو على قامتي، آنس بها واستبشر، فأشبك أنا أيضاً ذراعي بذراع، وأتمخطر تياهة الخطى، بجل زحفي البطيء، الدامي، وحدي على الطرقات. وأرمي رأسي في المساء الهائج، الصقع، المخيف، على صدره. وأقطر في سمعه، مغمضة العينين، كل ما يرهق بريق عينيّ المجهدتين، وجسمي النحيل، اليانع... فيكرس لي هو كل عطفه، ويساعدني على إيجاد خصائصي: شرقية أم غربية؟ جميلة أم قبيحة؟ أصلح لابداء رأي قيم في السياسة أم لا؟ طالبة في الجامعة، أم زائرة؟ ونهجر هذه الأمكنة التي ولدنا فيها، لنسافر إلى أرض فسيحة، وبلدان مجهولة، نزور آثارها ونتعرف إلى أهل الأرض كلهم.

واصطدم رأسي بغصن شجرة يتدلى على جدار، فخدش جبهتي، وسال عليها خط دماء رفيع. أخفضت رأسي، ومسحت الدم بمنديلي، ثم أكملت سيري إلى البيت...

وصلت إلى شارعنا في الثامنة والربع، عرفت الوقت من المذياع، وفي دكان بائع حليب، يعلن انتهاء نشرة الأخبار المسائية الأولى.

شارعنا مقفر والليل هادئ. وأنا أسمع وقع خطواتي في مداخل البنايات، فلهذا اطمأننتُ في سيري واكتشفت في العتمة أوراقاً بيضاء، تتناثر على الرصيف. ففكرت:

سيأتي الزبال بعد قليل ليجمعها، ويقذفها في مياه البحر العميق. لماذا لا أجمع هذه الأوراق وأفتش فيها عن إنسان؟

انحنيت، والتقت ورقة بيضاء ملفوفة بإحكام. فتحتها، فإذا فيها: بصقة! ضحكت، وتمتمت: هذه البصقة هي إنسان مهذب: أنيق. ابن عائلة... لكنه كذاب.

تسلقت السلم بحذر، واتكأت على الجرس بيدي. وانتظرت.

سمعت ارتطام أوانٍ زجاجية في المطبخ. فاستغاثة. فصوت والدي الزاجر. فالهمسات. فدندنة الحذاء الجديد. فوشوشة الباب وهو يفتح: ثم رأيت وجه أمي الساخر، المهدد:

"لتتفضل جلالتك!"

رحبت بي والدتي ترحيبها بملكة. وتفضلتُ، رافعة الرأس كملكة، دون أن أرمي تحية... فأسرعت تسحبني بثيابي، وتوقفني آمرة:

"عندنا ضيوف، لا تدخلي إلى الصالون. سألوا عنك، فأجبت بأنك نائمة، أنت نائمة أليس كذلك؟"

أنا نائمة، وفي يقظتي؟

أمي بلهاء، ولن أشوه يقظتي، كما لن أشوه لون معطفي بلون آخر: نائمة، تساوي يقظة؟ وأصفر، يساوي أزرق؟ لا...

تملصت من يدها، وركضت، ووقفت على عتبة باب الصالون لأرى من هم الذين سألوا عني، وإن كانوا يتساوون والكذبة التي ابتدعتها أمي... فإذا هم جيراننا اليهود!

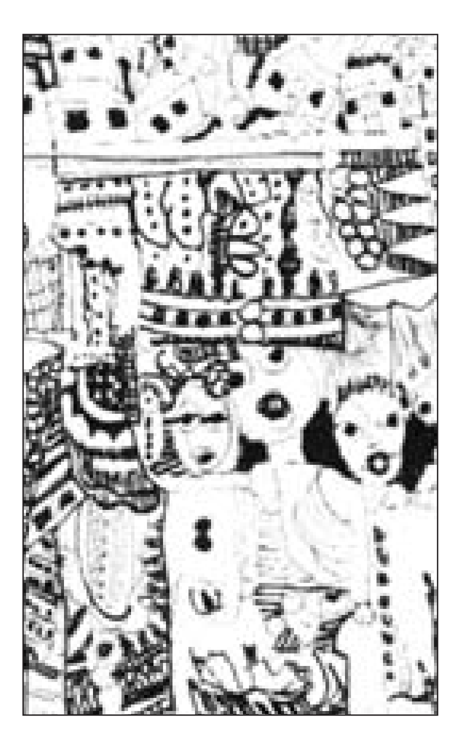
وشهقت اليهودية العجوز:

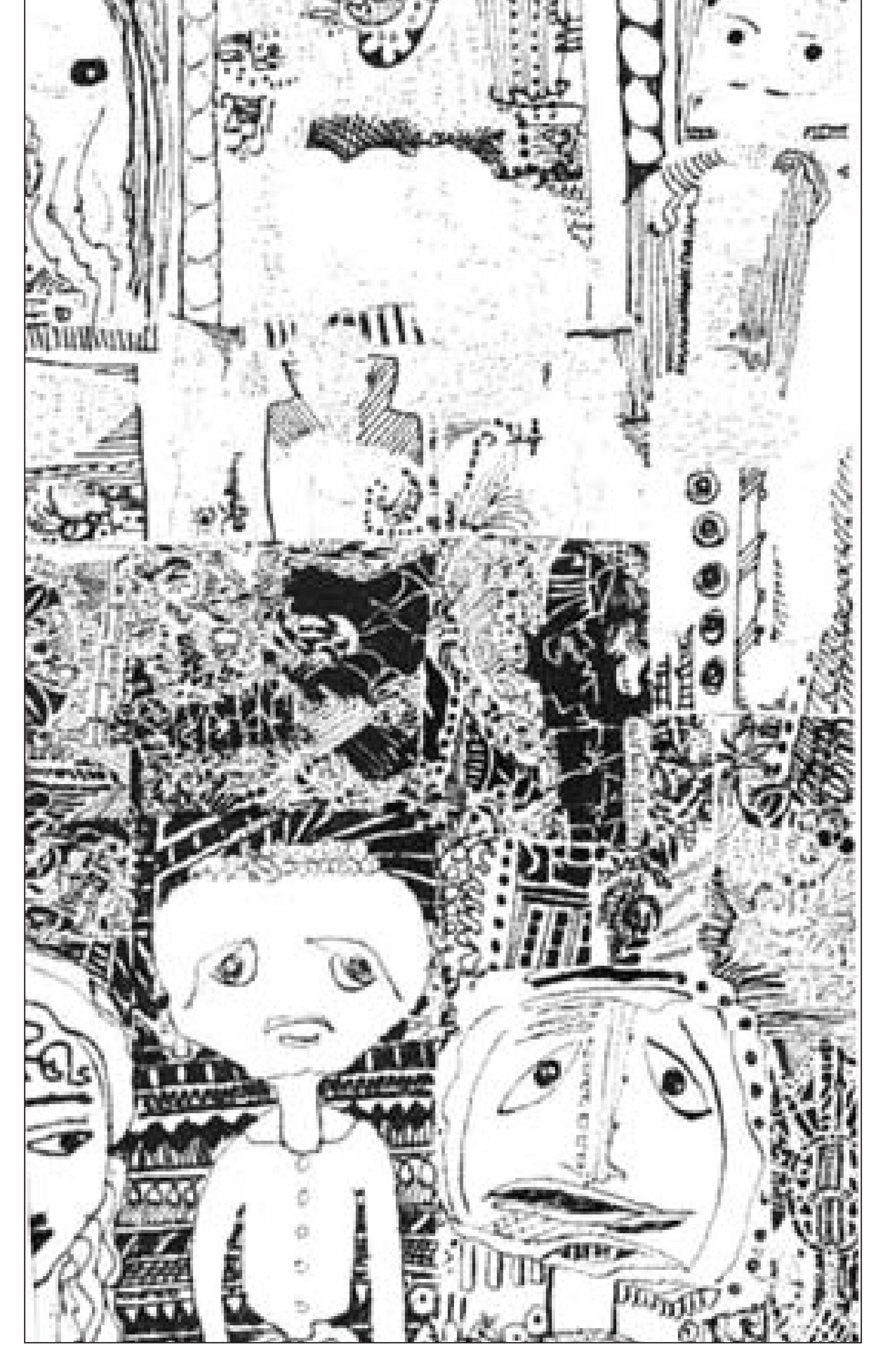
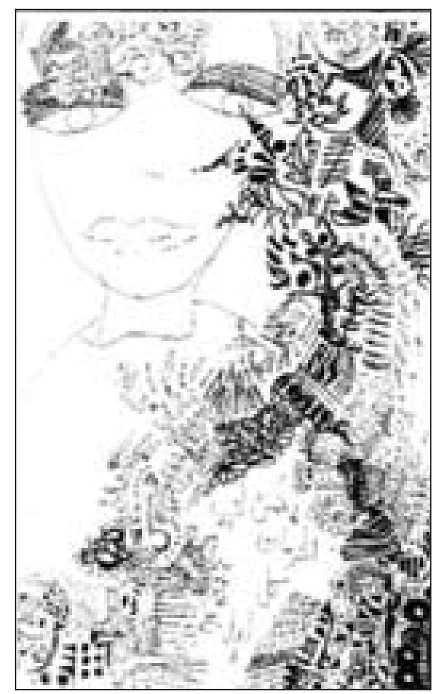
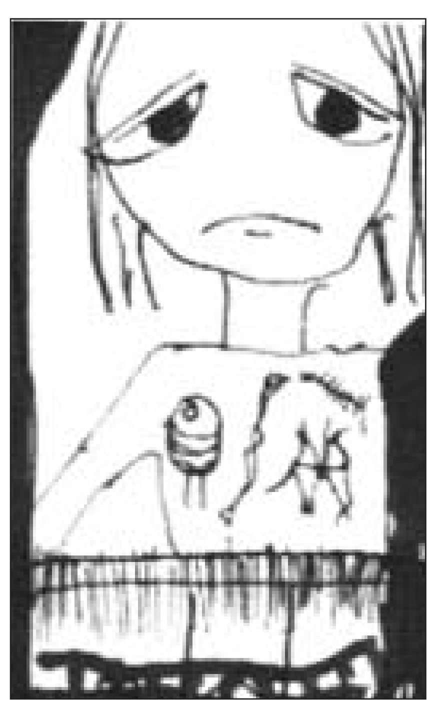
"ها.. ها هي.. هل.."

"نسيت.. نسيت، وفي رأسي ألف مشكلة.. كانت في الجامعة.."







لم أتفوه بحرف واحد، هززت كتفيّ، وأدرت ظهري، وحركت رجلي، فتساقطت همسات اليهودية الحسناء تستجوب الشقراء:

"أليس لها فتى يوصلها إلى البيت في المساء؟"

فابتلعت أختي حياءها بضحكة متقطعة، وتبعتني إلى غرفتي!

- ١١ -

نهضت عن مقعدي في المؤسسة، وجمدت وسط الغرفة، ثم عصرت أصابعي بعضها ببعض، فتسلل خاتمي الفضي متدحرجاً على الأرض.

تسلل الخاتم من أصبعي وخيل إليّ أن ثيابي هي أيضاً تتساقط عن جسدي. واتسع فمي. وكبرت الدائرتان السوداوان حول عينيّ.

أنا تعبة.

انتشلت كتبي عن المكتبة الصغيرة، ووضعت كتابين على المقعد الأول، ودفتراً وقلم الحبر على المقعد الآخر. ولونت عيني القرد في صورة الروزنامة بالقلم الأحمر. وأدرت التلفون إلى الجهة اليسرى. وفتحت زجاجاً واحداً من النافذة. وملأت قدح القهوة ماء، من الكوب الزجاجي السميك... ولم يبق غير جسدي أخفي به الكرسي المتحرك، خلف المنضدة. وشعرت بارتياح حين جلست وأغمضت عينيّ من جديد.

ثم فتحت عيني وتفحصت ما حولي، كأنني أرى هذه الغرفة للمرة الأولى.

زحفت إلى النافذة، وأزحت عنها الستار فإذا خادمة البيت المقابل تنشر الغسيل على السطح بخفة فائقة. أمعنت النظر في جسدها المترهل، وتساءلت:

أي رجل يشتهي هذا الجسد الغليظ الذي يشخر كجسد البقرة والحمارة؟ وفكرت: والدي يشتهي الأجساد المترهلة!

ثم تراجعت عن النافذة وانتصبت إزاء زجاجها أتفحص صورة جسدي المنعكسة عليه، فإذا جسدي نحيل، نحيل جداً. وشفتاي باهتتان مليئتان مرتجفتان... تحسستهما بأصابعي المتجلدة، وفركتُ عينيّ ورجعت إلى مقعدي أفكر:

أخلق جسدي ليحيا تافهاً كغيره من الأجساد: فيُمدح. ويستثار. ويستوحى. ويُمنح... ثم يفنى كأنه لم يتنعم يوماً، ويستوحى، ويمنح؟

ارتماء هذا الجسد في المؤسسة مهملاً يبرهن على أنني هنا كالمنضدة، كالكرسي، كالطاولة. وأنني حين أغادر هذا المكان سأستبدل "بواحدة" غيري، تماماً كما تستبدل المنضدة بمنضدة غيرها، والكرسي بكرسي غيرها، والدواة بدواة غيرها... فلن أترك أي نقص. ولن أعرقل أية حركة.

ويح الرئيس الذي يعتقد أنني أداة!

فهو يستخدمنا كلنا كالأدوات... سأواجهه...

ودفعت الباب بذراعي.

دفعته... لا لأنني كنت متشجعة. لا. أنا خائفة!

أخاف أن يرميني الرئيس خارجاً، فأعود إلى قيد والدي وإلى ترك الجامعة، وإلى التجوال في شوارع العاصمة.

أنا خائفة، لأنني أدرك نتيجة خصامي مع الرئيس. ولهذا، قبل أن أدفع الباب، لم أكن أعلم أنه غير مقفل!

وأدار الرئيس رأسه الصغير بهدوء وخلق، بطريقته الدبلوماسية، ابتسامة في عينيه البراقتين، فتلاشى غضبي وخمدت ثورتي. وخلقت مثله طريقة دبلوماسية للغضب، فأمرته بوقاحة:

"أمعن النظر في وجهي!"

فاصفر وجهه، ثم ابتسم، ربما لأنه تعود. أولم يتعود سماع هذا الأمر من امرأة؟ ومد رقبته، مد وجهه كله، لا ليحدق، بل ليشرق بعينيه وجهي المنتصب أمامه ثائراً. سألته:

"أفي وجهي ما يدل على أنني غبية؟"

فهز رأسه مستغرباً، وظل صامتاً ورددت بإعياء:

"ما معنى جلوسي في مكتب أنيق؟ ما قيمة العمل الذي أعمله؟ باستطاعة أية واحدة غيري القيام بمثل ما أقوم به. أنا لست كالباقيات، أريد ألا أكون كأي إنسان آخر..."

كبرت ابتسامته.

وأنا لا زلت خائفة، لا من الرجل الصامت المحدق. لا، فأنا مستعدة لصفعه إذا صفعني! لتحطيم المقعد على رأسه وقتله إذا تحداني! إنما خائفة من التشرد في شوارع بيروت...

ومر أمامي خيالي الهزيل، وهو يزحف رويداً على الرصيف. والوقت ليلاً. والناس يهرولون إلى بيوتهم يحملون لفائف وزهوراً وجرائد. والشبح يزحف... ويزحف... متفادياً السير بمحاذاتهم، لأنه يتعمد أن يلاحظ كل من يراه، أنه يحيا. هذه هي هواية الشبح: أن يحس الناس بوجوده.

بدا الاهتمام على يدي الرئيس، فتحركتا... وزاد خوفي. وطنطن في أذنيّ دوي مخيف، وبدت أمامي ملايين العيون – كلها عيناه – اذهبي!

اذهبي!

أأذهب حين يطردني؟ وأتوجه تواً إلى البيت، فأقص على والدي النبأ السعيد، ليصفق فرحاً، ويجلس على حافة سريري واعداً، مواسياً... ولتأتي والدتي، والعطر يفوح من خيوط ثيابها، فتلمس جبهتي بشفتيها الباردتين... وتزف الشقراء والسمراء إلى كل صديقاتهما، حرصي أخيراً على كرامة العائلة؟

تعالت الطنطنة، فأسرعت وسددت أذنيّ بأصابعي، واسترحت على المقعد. فترك هو مقعده، ووقف أمامي دون أن يتفوه بحرف واحد.

سكن الدوي في رأسي، ومرت دقائق وجوم وهو منتصب أمامي أخرس، وأنا أعالج الأجوبة التي سيحطمني بها. ورفعت نظري أجازف في تحمل شرر هيجانه، فإذا نظراته معلقة بساقي اليسرى التي عرّاها التفاف ثوبي على الساق اليمنى، فوددت عندها أن أقطع له الساق، وأحشرها بين مآقيه، ليسيل دمها في فمه، من العروق المذبوحة.

لكنه تكلم:

"هل عندك بعد ما تقولينه؟"

حركت رأسي أن لا. فسألني من جديد:

"من هو الرئيس، ومن منا الموظف؟"

لهجته لطيفة، محترمة، ساخرة، شجعتني على الإجابة:

"الآن، أنا إنسان وأنت إنسان..."

فقاطعني ضاحكاً:

"أتؤمنين أنت بمبدأ المساواة، أنت التي تمر بزملائها فلا تكترث لهم: لا تلقي تحية، لا تشارك في حديث، كأن زملاءك حيوانات تنهش لحمك..."

ارتعدت، فاقترب مني خطوات، وفي بريق عينيه شفقة وعلى فمه عبارات أبوية، وفي يده حين لمس يدي قوة ومؤاساة، وأمرني:

"إذهبي..."

فاصفر وجهي، ودارت الغرفة بي. لكنه تابع:

"إذهبي لمشاورة الطبيب، لعلك "محمومة". أفكارك هذه غير طبيعية، سببها طغيان الحمى. ثقي بي، سأهيء لك مستقبلاً مجيداً".

أيكون الرئيس بدوره محموماً؟

وبوضوح أفهمته:

"لكن، لكنني لست مريضة".

فضحك، وهو يربت على كتفي، وأوصلني إلى الباب، وتمنى لي ليلة هنيئة.

وفي الشارع، لاحت لي أضواء السيارات مخيفة في بداية هذا الليل، كأنها عيون كواسر تفتش عن فريستها، فالتصقت أكثر وأكثر في جدر البنايات على الرصيف، وأحسست في سيري إلى الجامعة بدوار هائل، وبضعف في رجليّ، وبنيران تضطرم في عينيّ.

يخيفني سقوط الشمس، كل يوم، في الأفق البعيد. وترعبني الأشباح التي يغرسها الليل في كل زاوية، وعلى الجدر، وفي العيون. وحاولت مرة أن أقاوم خوفي، فتركت نور غرفتي مضاء طوال الليل. وفي اليوم الثاني فاجأت جارنا يتهامس مع والدي، على مدخل منزل الجارة المترهلة. وقبل أن آوي إلى فراشي نبهتني الوالدة: "لينا، أطفئي الضوء في غرفتك قبل رقادك".

في رهبة الظلام، وصلت إلى قاعة الدرس. فإذا بعض الزملاء قد تأخروا عن موعد الدرس. فتعلقت عيناي بالمقاعد، وأخفقت في صرف انتباهي عنها، وصارعت لاستيعاب عبارات الأستاذ. عبثاً، فالمقاعد الفارغة تعذبني.

المقاعد فارغة.

تذكرت الكرسيين في المطعم، وكيف أبعدتهما عن طاولتي. وخطر لي أن أنهض، وأبعد كل المقاعد عن ناظري ثم استحسنت أن أسأل زميلة تجلس أمامي:

"ألا تزعجك هذه المقاعد الفارغة؟"

فتمعنت في وجهي ببلاهة، وقلبت شفتها السفلى، تجيب:

"لا أدري ماذا تعنين بفراغ المقاعد؟ هذه جمادات لا قيمة لها".

وعادت إلى إصغائها.

كأنها كائن غريب. تفحصت جسدها كله وصممت على اكتشاف ما يجول في بالها. ليتني أكسر عظام رأسها، فسألتها:

"إذا كنت جالسة، وحولك كرسيان فارغان، فماذا تفعلين؟"

هزت كتفيها باهمال، وكتبت لي جوابها على بطاقة دعوة لمحاضرة ستسمعها في قاعة محاضرات الندوة اللبنانية، في تمام السادسة والنصف: لا شيء.

لا شيء،

كأن هذه الكلمة الصغيرة، المقتضبة، تحل مشكلة خطيرة. لا شيء، كلمة لن تثنيها بأي ثمن عن فهم كلمات الأستاذ الغالية. فأخبرتها كيف أبعدت الكرسيين عن طاولتي في المقهى، والأستاذ يرميني بنظرات شذر وتأنيب، فشهقت...

وتوقف الأستاذ عن الكلام، وانصبّت عليّ العيون مستطلعة واعتذرت الزميلة، وتشاغلت أنا

بتصفيف أوراقي، في ملف جلدي أسود، وفكرت:

"كيف؟ كيف لا تشعر هذه بالنقصان؟ بالحيرة؟ بالقلق؟"

وفي تمام الساعة الخامسة والنصف، رمى الأستاذ جزءاً من حروف كلمته في مسامعنا. وابتلع القسم الآخر ليكون على حساب محاضرة الثلاثاء القادمة.

وهرولت الزميلة النشيطة إلى الندوة لتكتسب معرفة أوفر من الرؤوس التي تختزن مجلدات مكتبات الغرب وأميركا... فتبيعها على دفعات من المؤسسات الثقافية عندنا.

وخطر لي أنني صادفت مرة في مطعم الجامعة طلاباً من الجزيرة العربية، يزدردون طعامهم بالشوكة والسكين، ويتناقشون بالانكليزية، ففكرت: إلى متى ستدوم هذه الصبغة الأميركية عليهم؟

وسحبت جسدي من القاعة.

أمامي ساعات لا متناهية الطول والعمق والرحابة والغموض. عليّ أن أقفز حواجز صعبة، متعددة، لألتقي بفراشي. فأنا، ما دمت أطمح إلى الوصول إلى الفراش، عليّ أن أعيش عالم المكتبة، وعالم الشارع، وعالم العم سام، وعالم درجات بيتنا، وعالم الطبخ في بيتنا، والصالون، والممر الشاسع... وأخيراً عالم سريري الموحش.

